

أحمد فؤاد تيمور

أعترف إليك

وقصص أخرى

أفرا



اقرا

تصديق اولت كل شهر
[٣١٥] مارس ١٩٨١

رئيس التحرير أنيس منصور

أحمد فؤاد يمور

أعترف إليك وقصص أخرى



دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

الاهراء

إلى حب عمري ..

ملهمتي ..

زوجتي

أعترف إليك

مهداة إلى صديق : ص . أ
رمز محبة وإعزاز وتقدير . . .

بعد ساعات ، سألتك في المطار الذي ودعتك فيه ،
واستودعتك الطائرة الذي احتملك على جناحيه ، إلى بلاد
تناءت عنا ، تنشدين لجسلك الراحة ، ولنفسك البرء .

ركبت الهواء ، ذلك الأرعن المأفون ، وإنها لمخاطرة ، أملتها
علينا ظروف طاغية ، لولاها لتخيرت لسعيك سبيلا أكثر
أمناً ، وأسلم جانباً .

لقد طالعت الطائرة يوم رحيلك ، يربض على أرض المطار ،
مشرعاً جناحيه ، في أنفة واعتزاز ، وقد رفت على ثغره ابتسامة
هازئة ، توضح لي مع تباشير الفجر النامية ، وكأنه فطن إلى
ما يعمل في نفسي من مخاوف ووساوس ، وظنون .

فألفيتني أبشبتك معه في مناجاة هامسة ، ضارعاً إليه أن
يتجنب في مسراه نزق الريح ، وأن يلتمس من الحيل عوناً على
مجالدة الجو والسيطرة عليه حتى تكتب لكما السلامة ، وتأنس
بكما البسيطة من جديد ، تزجي لكما التحايا ، في إقبال ويمن .

والآن ! بعد انقضاء ذلك الوقت المديد ، وقد ارتقى الطائر
 متن الريح ، يقفل بك راجعاً من المصحح البعيد ، ما برحت به
 أناجيه ، وأسدى له النصيح ، كشأنى معه ساعة مرق إلى السماء ،
 يحتجب عنا خلف أستار السحب .

لم أكف ، منذ ذلك الحين ، عن مصاحبتك ، والاجتماع
 بك ، أسايرك حيث ترحلين ، وأمسى حيث تمسين ، إن أظلت
 جبينك غشاوة من تفكير ، أقبلت أفاكهك ، حتى ترف على
 ثغرك ابتسامة ، ويتضوأ على محياك إشراق .

لست منك إلا ذلك الراصد الدؤوب ، الذى لا يبتغى
 لك فى سهره ويقظته إلا الأنس والإمتاع .

أقسم ! إن قلبى لمستودع كبير ، يعمره لك حب وإعجاب وتقدير .
 أما فتئت تعتقدين أنى أخدعك وأضحك منك ؟
 دعبنى أكاشفك بالداء الذى يعتمل فى نفسك ، يورثك
 المخافة والقلق .

زعمت أنى أخونك . . . ! أخونك فى أطراف النهار ،
 وغاشية الليل .

منذ سنين ونحن زوجان . . . !
 أما حان لك أن تقرى بما أنا منغمس فيه ، من موفور

الجهد ، وموصول السعى ؟

أعهدت منى وقت فراغ ، وساعة لهو ؟

أساحر أنا ، قادر على الغداة والعشى ، أصرف الوقت
فيهما ، بإمرة منى وسلطان ، إن أشرت إليه ، أو لوحت
توقف ، كما أهوى ، لينفسح لى مجال عبث ومجون ؟

لقد امتد غيابك شهرين طويلين ، لم يهدأ « للهاتف »
فيهما صليل وعويل ، وما الصوت الذى يتردد منه إلا صوت
صاحبتك ، التى تنزل من نفسك منزلة الصديق المؤتمن الوفى .
أكانت ترتصد لى ، وتموه على ، لتضعنى موضع اختبار
قاس ، وامتحان عصيب . . . ؟

أكانت تتشم ريح الخيانة ، لتقدم لك كشف الحساب الختامى ؟

أهذه وصيتك إليها قبل المغيب . . . ؟

أم كان ذلك صنيعاً عمدت إليه لأمر تخفينه . . . ؟

أأرادت أن تستدرجنى ، حتى أجد عندها الصدر الحنون
ساعة يعوزنى إلى الراحة سبيل . . . ؟

الافتراض الأول أحق بالقبول والتصديق .

ليطمئن قلبك ولتهدأ نفسك !

لقد أنفدت صديقتك ما طلب منها أن تؤديه ، بدمة
وأمانة وامتنال .

كانت رائعة في الدور الذي قامت به .

أتجحدين إلى هذا المدى حدة ذكائى وشدة فطنتى ؟
أما كان الأجدر بك أن تدبرى حيلة أوفر التواء ، وأكثر
تعقيداً ، تموهين بها على ؟

أحسبنتى ساذج الفهم ، قاصر الإدراك ، فقيراً إلى دقة
حس ، ولطف إلهام ؟

يقينى : أن صديقتك ما كانت إلا الطعم الذى أدليته لى
من شصلك العتى ، تبغين به التعرف والتكشف والاستخبار .
أتنكرين خطر تلك التجربة ، وما عسى أن ينجم عنها من
نزق وجماح ؟

دعينا نتخيل — جدلاً — أن الفريسة لم تفتن إلى ما بيئت
لها الخطة من تدبير طائش غرير . . .

هيا أن الفريسة وقعت في الشرك الذى نصب لها ، صريعة
هوى مشبوب ، لا حيلة لها فيه . . . !

ولنطلق لخيالنا العنان ، نفترض أن الصائد استهواه ساعة
الشواء رائحة الصيد الشهى ، فانشى يقضم منه قضبات مريثة
هنيئة يستمتع بها ويستلذ .

أينا خليق باللام ومر العتاب ؟

الصائد . . . ؟

الفريسة ؟

أم المدبر الألعى الفطين . . . ؟

أما علمت أن اللاعب بالنار لا يأمن أن يصيبه منها شواظ ... !
الرجل في ظنك خداع أثيم ، إن أرخى له الحبل جمع يستطيب
العبيث دون أن يصد نزوات نفسه ويصون العهد لأليفه الصنى .
أما أنا فاعتقدت أن الزوجة ما هي إلا جلاد عنيد ،
لا يفتأ يسلط على رأس الزوج سيفاً مرهفاً ، يحد به من حرите ، وأنه
لا يملك إزاء محنته تلك إلا أن يجنح إلى مخاتلة ومخادعة وتضليل .
لعلك تدركين إذن سر ما أصارحك به من اعتراف وإقرار ...
لقد كنتُ لك عوناً على السفر ، إذ كان يداعبني أمل
الظفر بفترة حرية وانطلاق ، وأنت غائبة في مناك البعيد .
أنا السجين الذى بشره برحيل سجاناه عنه ، فظن أنه
سينعم حتماً بحياة بهيجة لا يشوبها حرمان وكبت .
تمثلت لى يومئذ القيود وقد ذابت ، والسدود وقد انهارت ،
وانفسح أمامى الطريق للدعة والرتوع لا رقيب ولا حسيب .
فلتعلمى ما كان منى أثناء غيابك الطويل .
ما بدأت عجلة الأيام تسير بى ، وقد غاب وجهك عنى ،

ونحلا لي الجوى وحدى ، حتى حاصرتني كتابة ، وداخلني هم ،
ولعبت بي حيرة ، فألفيتني أنطوى على نفسي ، وأنسج حولي
قيداً من فولاذ ألبأ إليه وأحتسى به .

وارتددت إلى عشنا الخاوى أوصد بابه على ، لا أعائش غير
طيفك الخاني أستدني منه لنفسى الكابية ضوء الرجاء ، وشعاع الأمل .
وانكفأت أتساءل : أين الانطلاق الذى كنت أتطلع
إليه وأحلم به ؟

رحيلك كشف لي فجراً جديداً لم أعهده ا
ما كنت أحسب أن العيش بدونك له طعم كريبه ، أتأبأه
وأنفر منه .

أمنكرة أنت على السجين إن هو خرج إلى النور ، والتقى
بالهواء ، أن يعاوده إلى محبسه حنين وإلى سجانه شوق ؟
أمنكرة أنت على المخمور الذى نهكه الشراب ، وهرح به ،
أن يتفقد الكأس لينهل منها ويعب ؟

أمنكرة أنت من العاكف على درس وكتاب ألا يفرح
بما يتاح له من راحة وجمام ، وإنما يراجع ما عكف عليه
لا تطيب نفسه بسواه ؟

أنت سجانى ، وأنت خمرى وكأسى ، وأنت كتابى ودرسى ،

ولاني لم تطلع إليك ، ومؤتنس بك في محضرك ومغيبك على السواء !
 في الصيف نتأذى بحر الشمس ، فإن توارت عنا بالحجاب
 في غمامم الشتاء الدكناء ، ترقبنا منها الشعاع واستجدينا الدفء !
 أغاب عنك أنك حثوأتى . . . ؟
 من أضلاعى خلقت ، فما بغيرك يستم لي خلق ، ولا يكتمل
 كيان .

عودى إلى .

عودى ، لألتقى في سمائك بالحرية ، والانطلاق .

عودى ، أراجع معك العيش البهى .

عودى . . . عودى ، فقد انكشفت لي حقيقة أمرى ،
 واستبان لعيني السر الخفى .

* * *

كانت الزوجة جالسة عن كذب من جهاز التسجيل ،
 تستمتع بنبرات ذلك الاعتراف المستفيض ، يترنم به الشريط
 في هدوء وأناة ، وقد افتر ثغرها عن ابتسامة الرضا ، وتبلورت
 في عينيها المكحولتين دموع النشوة والزهو والاعتزاز .

وما يكاد الشريط الناطق يتم دورته ، وينقطع عن إنشاده
 الحلوى ، حتى تستأنف الزوجة الاستماع إليه بشوق جديد .

ضابط الإيقاع

جارى الذى يقطن الشقة التى أطل عليها فى البيت المقابل
لمخنانا رجل وسيم الطلعة ، ضامر العود ، بائن الطول ، فهو فى
مظهره هذا ، ولا غرو ، صنو الأسبانى دونكشوت بعثته
الأسطورة من بين دفتيها ، ممتشقاً ، عوضاً عن السيف والرمح ،
عصا رشيقة يتكى عليها ، ومذبة خصيبة يهش بها على هوام
الطريق .

لقد تخطى جارى ، بفضل الله ، عامه الأربعين دون أن
ينبه ذكره ، ويتألق نجمه ، وقد طوف مبكراً بأبواب الوظائف
يطرقها ، بعد أن أقصته معاهد الدرس ، ولما ينهل من أفوايق
العلم ، نهلة ظامئ .

وأصبح ذات يوم ، حبيس حجرة بالطبقة الأرضية من
مبنى حكومى مضطجع ، ليس فيها بصيص من نهار ، يضيئها
مصباح شعيج عكر ، وفى أرجائها تتكدس أضاميم منتفخة ،
وأضابير تربة ، وكل إليه تنظيمها وتصنيفها وضبط ما يحوته

ميزقها في دفتر عريض ، جثم على مكتب أعرج ، خصص
 له ، فأسندوه إلى الحائط كيلا يهوى إلى الأرض كومة هامدة .
 وظيفة ، أعلى الله قدرك ، خاملة الشأن ، مطمورة الذكر ،
 جعل جاري يغالب بها الزمن ، فإن أضيف أجره الشهري إلى
 دخل يأتيه من منزل كهل ، ورثه عن إحدى عماته ، ساغت له ،
 مع فاتحة كل شهر ، حياة هائلة ، وعيش ميسور .
 بيد أن الأقدار التي أمسكت بتلابيبه ، تضمن عليه
 بالشهرة والمجد ، خصته في سماحة ، بذوق رفيع ، وحس
 مرهف ، وخيال خصيب ، وتلك على غير شك ، خصائص
 الفنان الأصيل .

هكذا توافرت له شقة أنيقة الرياش ، رشيقة الأثاث ،
 نالت منه الحذب والعطف ، فبسط كفه ، يكفل لها الوسامة
 والتأنق ، متجنباً وسائل التجميل الصاخب ، والزينة الصارخة .
 لم تكن شقيقته مشغلة التي تملك عليه وقته وحسب ،
 بل استهواه الفن في شتى مظاهره ونواحيه من أدب وتصوير
 ونحت ، أما الموسيقى فلكت عليه أقطار نفسه ، تملئ عليه
 كما تملئ الغانية على صاحبها ، ما تصبو إليه من رغب ، فأفرد
 لها حجرة أطلق عليها « كعبة الإلهام » خصها بما تستوجبه الألحان



من آلات الطرب والرصد والتدوين حتى تمكنه إن هي شددت
 في محرابها ، من معاشرة الأنغام أجل معاشرة ، ومن ثم
 تطاولت من « كعبة الإلهام » أسلاك كهربية ، زاهية اللون ،
 تحوَّت في الردهات بعودها اللوحي ، ملتحمة بمضخمات
 للصوت ، زانت جنبات الشقة بوجهها الأجرد المصقول ،
 لتهدى إلى جارى الأصوات ، أينما حل ، في سهولة ويسر .

فكان يتراءى في المستشرف الرحيب ، عند الأصيل ، على
 مقعده الأثير ، وبين يديه قلدح القهوة يرشف منه كأنما يشيع
 قرص الشمس وقد تمايل في الأفق منحدرأ إلى مغيب ، على
 رنين الألحان الخوالد ، تتناهى إليه من « كعبة الإلهام » وكأنه
 كاهن مصر الأعظم يزف إلى « رع » رب الأرباب ، أناشيد
 الكهنة ، وتسابيح العابدين .

إن نزعات جارى كما تشهد بسيطة هينة ، وعلى الرغم من
 هذه البساطة الوداعة ، لم آلفه إلا دائم الشحوب ، محنى الهامة ،
 مكفهر الوجه ، لا تفارق فيه بسمه يائسة ، ثم عن نفس
 حزينة ، تختزن شجاها كما يختزن الإناء بخار الماء الفوار .
 وإن أنت فتشت في حياة الرجل ، هدتك فطنتك ، دون
 مواربة وعناء ، إلى خط ممدود ، لا يتنكب عنه جارى

ولا يحيد ، فإن متعت الشمس ، ولاح النهار ، ألفيت باب
شقيقته ينفرج عنه ؛ أبرز ما فيه بزة أنيقة ، وبنيقة منشاة طوقت
عنقه ، يطيف بها رباط للرقبة ، هادئ اللون ، أحكم عقدته ،
فبرزت تحتل وسط البنيقة ، في تألق ، مضية عليه مزاجاً من
وسامة وبهاء .

ويتوخى جارى الطريق ، في خطأ وثيدة ، متباعداً عن
الزحمة ، يتوكأ على عصاه ذات المقبض العاجى المفضض ،
وعلى فؤديه يستوى طربوش زاهى اللون ، على حين تتشاغل
يسراه بمذبتة ذات الدليل الحصيب يلوح بها عن يمين وشمال .

وما إن ينتصف النهار ، وينقضى وقت العمل ، حتى
يتلقاه الحى مع حشد العائدين ، فلا يابث أن ينغلق عليه باب
شقيقته لا يريمها حتى يحين صباح ، فلا أجده سوى النافذة
أتطلع منها إليه ، إذ دأب الرجل على أن يدع مصراع نافذته
مفتوحاً ، ليستقبل بريق النهار ، فإن اتفق له أن لحنى وهو
منصرف إلى بعض شواغله المنزلية يصرفها ، توقف يبتسم
ويحيينى بانحناءة من رأسه دون أن يجرى بيننا حديث ، فلا يسعنى
إلا أن أبادله الابتسام وأن أرد التحية بمثلها ، ولا أعتم أن أرتد
عن النافذة فى استحياء .

وسرعان ما ترسل على سمعي أصدااء شجية لألحان رشيقة ،
تجتذبنى إلى النافذة ، محرّكة منى كوامن الشجون والأحاسيس ،
فأستلقى على مقعد مجنح وثير ، أسمع النغم فى نشوة وشغف ،
وأنظارى فى شقة جارى هائمة ترصده ، فإذا هو مسترخ على
متكأ عريض ، يجتذب الدخان من غليونه ، وبين يديه كتاب
يطالعه ، وقد أخلد إلى سكينه يساير الألحان فى لذة واستمتاع .
على هذه الوتيرة كان جارى يختم أمسيته بل أماسيه ،
التي طالما شاطرته إياها .

وشدما كنت تواقاً إلى أن تربطنى بجارى هذا أواصر
تعارف ومودة ، فأنا به معجب ، فلا يفوتك أنى ما زلت فى
شرح الشباب ، يستهوئنى كل ما فيه تألق وبريق ، ولا يغرب
عنك أننى بالموسيقى جدد مشغوف ، أوطد العزم أن أقترح
ميدانها أثبت فيه قدمى ، وأفوز منه بمكان مرموق .
ويوماً مثلت إلى النافذة ، وفى يدي مزمار ، أنا حديث
عهد به ، أتدرب على النفخ فيه ، مشغولاً بالنص الموسيقى ،
أفك منه رموزاً وطلاسم ، تناثرت بين سطورها حصصيات
تغص بها عيني .

وباغتني صوت رنخيم يهمس لى فى تودد :

ما شاء الله . . . ما شاء الله .

ورفعت رأسي ، منحياً المزمار عن شفتي ، أتبين ،
فابتدرني جاري ، من نافلته ، بسؤاله :

أمغرم أنت بالموسيقى إلى هذا الحد يا عزيزي ؟
وأجبتته على الفور ، تشوب صوقي مسحة الحجل :
كل الإغرام يا سيدي .

— أطال عهدك بالتدرب على النفخ في المزمار الذي بين يديك ؟
— إني بالمزمار حديث عهد يا سيدي . . . لا أحسن
الصفير بعد .

— أتجد التدرب عليه صعباً عسيراً ؟
— أصعب وأعسر مما تخيلت وحسبت .
وتوقف عن الكلام ، يتلاعب بغليونه وكأنه يدبر أمراً ،
ثم نطق في صوته المنغم يقول :
ألك رغبة في حضور حفل موسيقى ، تشهد فيه كيف
يساس المزمار ، وكيف يغرد تغريده الشجي ؟
فتشاغلت بالمزمار ، أوارى استحيائي ، ووقفت حائراً
لا أنطق ، فسمعته يقول في تعاطف ولين :
لم تجب عن سؤالي . . . أباك رغبة في حضور الحفل ؟

فبرقت عيناي وأنا أجيبه :

كل الرغبة يا سيدى .

— ما رأيك إن أنا دعوتك إلى الحفل بعد غد . . . أأطمع

في صحبتك والائتناس بك ؟

— عفواً يا سيدى . . . بل أنا المتشرف بما تدعوني إليه .

— سأدعوك ، ولكن لى عليك شرط .

فتطلعت إليه والبغته تعقد لسانى ، أقول :

وما الشرط يا سيدى ؟

أن تكف عن مخاطبتى على هذا النحو من التحفظ

والكلفة .

— إرادتك يا سى . . .

وأسكتنى بإشارة من يده ، ثم قال فى تضاحك ، وهو

يمط شفتيه :

— لقد تم الاتفاق . . . أليس كذلك ؟ . . . لنا لقاء بعد

غد . . . سعدت أمسيته .

ثم أوما برأسه لإيماءته المألوفة ، وتباعد عن النافذة ، تخيبه

خطاه ، على حين أقبلت على المزمار أحتضنه فى تودد ،

وأثواب من فرح ، متطلق الأسارير .

ولما أخذ الجهد منى ، ارتفعت على المقعد مبهور الأنفاس ،
وما عثمت شفتاى أن التحمنا بالمزمار ، فانبعث منه صفير
مهوش ، يعربد فى الحجرة ، وكأنه صيحات الصبية وهم منصرفون
إلى عبثهم يمرحون .
وحل موعد الحفل .

وبرزنا أنا وصديقى الجار إلى المسرح الكبير .
وضمننا الصف الأول إليه ، نحتل منه أكرم مقام ،
فلا يعوق المسرح عن أنظارنا عائق .
وانصرف صديقى يرقب الموسيقيين على منصة المسرح ،
وقد تشاغل كل منهم بمعزفه يتفحصه ويضبطه ، ويعده الإعداد
التام ، ريثما يبدأ العزف ، فاضطربت القاعة بدندنات سقيمة ،
تفتقر إلى يد حازمة تتحكم فى فوضاها ، وتحسم ما سادها من
تنافر وشقاق .

ويطن فى البهو صليل جرس .
وتتخافت الأنوار وتنكمش .
ويندلع من أقصى القاعة نور باهر ، وإذا هو يهبط
نسجاً من الأشعة على المسرح ، كأنه قرص الشمس
الوهاج يلتقى على الكون تحية الإصباح ، فتتبدى منصة

المسرح ماسة فريدة تضوى وتتألق ..

ولا ينقضى بنا كبير وقت حتى ينفرج نسج الأشعة عن
« ضابط الإيقاع » يفرق سبيله بين مقاعد العازفين ، تهديه
خطاه النشيطة إلى منصة القيادة ، متأنقاً في لباس السهرة ،
فانبرى صديقي يضرب كفيه في حماس ، ولم تلبث أن ضجعت
القاعة في إثره بعاصفة من تصفيق ، فانحنى القائد من فوق
منصته انحناءة رشيقة ، يرد بها التحية ، ثم اعتدل يواجه حشد
العازفين ، ترتفع يمينه بعصا القيادة ، فتعلقت به أنظار
الموسيقين ، تنتظر الأمر منه في انتباه ، على حين انصرف هو
إلى أوراقه يجرى عليها عينيه ، ويجمع في رأسه شوارد النغم .
ويسود القاعة سكون سابغ .

وتصدر من القائد الإشارة ، وتتحرك الآلات ملهية النداء ،
وتسيل الأنغام محكمة البنيان يؤازر بعضها بعضاً في تآلف
وتعاطف وانسجام .

ولا يفتأ جرى الصديق مشدوداً إلى مقعده ، تنعقد أنظاره
بعصا القيادة وهي غادية رائجة بين الآلات توقف تلك وتنبم
تلك ، أنا هي ثائرة تستصرخ الصنوج ، وتقرع الطبول ،
وتعنف بالأصوات في صلصلة وقعقة وضجيج ، كأنما الرعود

تصطفق ، وأنا هي مسالمة تجنح إلى تلاطف وتعاطف ولين ،
 فترق الألحان وتخف ، كأنها وسوسة الماء أو همسات النسيم ،
 تنساب بين الحماثل والمروج ، فيشدو الكمان بصوته الحنون ،
 ينني في عذوبة لحنه ، عصف الرياح ، واصطفاق الرعود .
 ولا يفوتك أن تأخذ ضابط الأنغام ، من فوق منصته ،
 لا يستقر ولا يهدأ ، يشرئب ويتقاصر ، يثور ويموج ، يسالم
 ويلالين وفق ما تمليه الألحان .

وعرضت منى التفاتة إلى جارى الصديق ، فالفيته يتطلع
 إلى « ضابط الإيقاع » تطلع الوثني إلى صنمه المعبود في إكبار
 ونخشوع ، ويده تحاكي تلويحات عصا القيادة مطاوعة
 في طرب إيقاع النغم ، وقد التمعت عيناه ، وتورد خداه ،
 فتلاشى شحوبه المألوف ، ونضج محياه بالبشر والإشراق .

وما إن انتهى العزف الختامى حتى انبعث جارى يضج
 بالتصفيق ملوحاً بيديه ، ويصيح في احتياج صيحات المديح والثناء .
 وزايلنا القاعة إلى بهو المسرح الكبير نستمرئ صدى
 الألحان ، ومال على ، ونحن في منصرفنا ، يقول والحماس
 باد عليه :

البرنامج رائع . . . والأداء أروع . . . أما « ضابط

الإيقاع » فإنه ، حفظه الله ، فد استنبط نزعات المؤلف ومقاصده ، فساس الألحان عن فهم عميق ، ودراية واسعة ، جعلته ، ولا ريب ، يكفل سمو الإنشاد وبراعة الشدو .

وامتد الحديث بيننا وتشعب ، حتى إننا لم نشعر بوحشة الطريق في مثل هذه الساعة الواغلة من الليل ، وشارفنا الحى الذى نسكنه ، فشد صديقى الجار على يدى ونحن نفرق ، يقول : الحديث له بقية . . . أنا فى انتظارك عصر غد . . . عندى . . . فى شقتى . . . سوف أسمعك من روائع الألحان ما يطربك . . . هيا ، لقد تأخر بنا الوقت . . . لا أريد أن أثقل عليك . . . إلى غد .

وفى أصيل الغد ، مثلت فى « كعبة الإلهام » أطوف بها مؤتسماً بما ضمته إليها من طرف وألطف . وراعنى فيما راعنى ، عصا للقيادة ، رقدت بعودها المشيق على حامل معدنى دقيق ، فوق مائدة مستديرة ، تحف بها دى من الحزف ، تمثل حشد الموسيقيين فى جوقة متكاملة العدة والعتاد ، يتوسطهم مصنف موسيقى ، لمقطوعة مأنوسة .

فوقفت أزجى إعجابى للجارى الصديق ، مطرباً فيه حسن الإخراج ، فاضطرب فى وقفته ، وانكب على عصا القيادة ينزعهـا

عن حاملها المعدنى ، وأمسك بها يضغط عليها فى رفق ، متشاغلا بها ، ثم أقبل على الدمى الخزفية يرعاها فى نظرة حانية وهو يغمغم :
 هذه هى دنيائى يا عزيزى الصديق . . . دنيا الأنغام
 والألحان . . . إنها فى هذه الصور المتواضعة تحقق حلم حياتى
 العريض .

فقلت له يملؤنى الإعجاب والتجسس :
 يا له من عالم عزيز على . . . محبب إلى
 وتهدي صديقتى البحار تهدة جياشة ، وهو يتابع قوله راعش
 الصوت :

لقد عشقت أنا الآخر هذا العالم الرحيب ، ووددت أن
 أصبح فيه علماً من أعلامه النابهن .
 — وما الذى حببك عنه ؟

— أبى يا عزيزى الصديق . . . ما كاد ، سامحه الله وعفا
 عنه ، يقف على رغبتى فى الالتحاق بمعهد الموسيقى ، أستكمل
 فيه دراستى العالية ، حتى استشاط غضباً يكرهنى على إذعان
 وسكوت ، على حين أخذ يرسم لى الطريق الذى وجب على
 أن أسلكه ، ويشق آفاق حياتى ، فيرانى طبيباً مرموق القدر ،
 يشار إليه إشارة السمو والإكبار . . . أما أن أصبح صانع

أنغام فهذا ، على حسب حدسه ، مضلة وغواية ، معبثة
 ونخسارة وضياح ، لن يرتضيها لى مهنة يتبناها ويباركها . . .
 وطال بنا النقاش وتشعب . . . وأخيراً احتد بنا الجدل يجرنا إلى
 مفاصلة وفراق . . . فأخليت له وجه البيت ، ورحلت إلى عمه لى ،
 أثق بها ، أطلب عندها الطمأنينة والعون . . . فطابت خاطرى ،
 وكانت رقيقة القلب عطوفاً . . . ووعدتنى ، فى فيض من إعزاز
 ومحبة ، التوسط لدى أبى . . . ولما سمع لها ، علا صوته مهدداً
 إياها بقطيعة وشقاق إن هى لم تكف عن هذا الهراء المقيت . . .
 وأقسم ، وما أغلظ قسمه ، إنه لن يرضى عنى ، ولن يقبلنى
 تحت سقفه طالما تردد له فى الحياة أنفاس ، وإن سعيت أسف
 التراب عند قدميه . . . ورجعت عمتى من لدنه مبتتسة تسبح
 دمع الحبيبة والإنخفاق ، وتدعونى إلى تعجلد وصبر . . . وضاق
 لى رحاب الحياة . . . فانقطعت عن الدرس متدمراً ، أرفع
 راية العصيان ، وانبريت أوصل الحياة ، وأتكسب العيش ،
 دون أن تمتد يدى إلى معونة أحد .

والتحقت بالحكومة ، أضرب فى مجاهلها ، كأتى جواب
 آفاق ، أخطأ الطريق المرسوم ، فتاهت به خطاه فى أحراج
 غير مطروقة ، فتناساه الناس ، حتى تناسى نفسه هو الآخر ،

فلازم يأسه ، وانقطع عن الحياة يستمرى العزلة والتفرد ،
مستكملاً في تعثر ، ما تبقى له من أيام . . . وما إن توافرت
لدى بقية من مال حتى عكفت على « كعبة الإلهام » أشيدها
مثابة أتصيد فيها لحن حياتي الضائع ، ومناحة أسكب فيها الدمع
على حلمي العريض الذي وسده أبي التراب في عناد .

وانقطع جاري الصديق عن إنشاده ، يزدرد ريقه ،
وكان حنجرتة شرقت بالعبارات ، فسعل يواصل حديثه ، مبهور
النبرة ، متقطع الأنفاس ، وهو يتقدم من المائدة المستديرة ،
يعيد عصا القيادة إلى حاملها المعدني ، وقد ران عليه تخاذل
وشحوب ، وسمعته يقول خافض الصوت :

مالى أرانى أحدثك هذا الحديث الكدر . . . هيا بنا إلى
المستشرف . . . الشاى معد . . . أنخشى أن يكون قد برد
لطول الانتظار .

وضمنا المستشرف نحتسى أقداح الشاى ، وعلى أسماعنا
ترسل الأنغام شجية حنوناً ، جادت بها علينا « كعبة الإلهام » ،
فانسرح جاري الصديق مغرقاً في صمت ، يرنو إلى قدحه مليئاً
وقد اكفهر وجهه ، وشاهت خلقتة ، واستولى عليه نظامن
وقنوط ، كأنما هو الشجرة العجفاء أثقلها مر السنين ، فجف

عودها ، وتجددت قشرتها ، تكاد تتقصف هاوية ، تودع
الحياة .

فأمسكت بيده أسأله :

أأنت بخير ؟

فضغط يدي يهيمهم في لهجة وادعة :

لا تنزعج . . . أنا بخير .

فودعته ، ولجأت إلى بيتي ، برأ بما وعيت من حديث
كتيب ، أرى أباه في ثورة من غضبي ، بالغفلة والجهالة
والبله .

وتوالت أيام .

وظلت نوافذ جاري مغلقة على غير المألوف .

وساورتني في شأنه ظنون .

وذاث عشية ، جاءتني ، وأنا جالس إلى المزمار أتدرب
عليه ، أصوات موسيقية تجيش بالأنغام في خشونة وغلظة ،
وتجأر بالألحان في شدة وصلابة ، كأنما هي ضربات المعاول على
صخر أصم .

فهرعت إلى النافذة أتشوف وأتكشف ، فصدمت بجاري
الصديق في « كعبة الإلهام » يلوح بعصا القيادة ، وقد اعتلى

مقعداً ، وأقبل على الدمى تلك الأقزام الخزفية ، كأنما غدت
فوق المائدة المستديرة ، عمالقة العازفين على منصة المسرح ،
تستجيب إلى تلويحاته في طواعية ، كلما حرك عصاه ، يضرب
بها الهواء على إيقاع الأنغام ، ترددها آلة التسجيل في أقصى
الحجرة ، فإن هي تراخت وشففت ، سكنت إيماءاته ورقت ،
وإن اشتدت وعصفت هاج وماج ، والعصا في مهب الأنغام
حائرة راعشة ، تغدو وتروح في اضطراب كأنها أصيبت
بمس محموم .

وبغثة كف جارى الصديق عن التلويح ، تستبد به نوبة
من نشيج ، فنحى العصا يقصف ظهرها ، وراغ إلى الدمى
الخزفية يبطش بها ، وامتدت يده إلى المصنف الموسيقى يمزقه
شر تمزيق ، وتشعثت حركاته ، واضطرب المقعد من تحته ،
واختل منه التوازن ، فانبسط على الأرض بعوده السمهرى ،
واستقر في سقطته دون حراك ، يشخب الدم من جرح أصاب
جبهته ، على حين ظلت الألحان تتدافع عنيفة صاخبة ، تنكر
في ثورة عارمة ، ما حل بعشيرها ، في الحياة ، من عسف
البحود والإخفاق .

إفلاس

كان « محسن العتر » ملقى على فراشه في حجرته الحربية
يعانى تباريح الإفلاس والعسر .

لقد أفقر جيبه إلا من قروش عشرين ، هى الصفوة
المتخلفة من الجنيحات العشرة التى يتقاضاها من عمله الحكومى فى
خاتمة كل شهر .

كان ممدوداً على سريره فى خمول ، يتجرع على مضض
كأس السأم ، إذ حبس نفسه فى ذلك القمقم المعتم ، موفراً
على جيبه نفقات لهوه التى تمتص القدر الأوفر من دخله الضئيل .
إن الليالى كانت تمر عليه وكأنها قرون طوال ، بل كأنها
كابوس جاثم يتمثل فيه حطام حياته الخاوية .

وتقلب على الفراش يشعل لفافة تبغ ، وما لبث أن انسرح
يعب أنفاسها مليئاً ، يجاهد يائساً أن يعيد السكينة إلى نفسه الحائرة .
ولما لم يفلح ، صدف عن مضجعه يذرع حجرتة فى خطأ
متخلعة ، كارهاً أن يكون ذلك القمقم العفن مجاله الأوحـد

الذى يستني إليه ويتنفس فيه أنفاس الحياة .
 إنه يختنق وإنه ليحس روحه تحتدم بين جنبيه ،
 وتحته على توثب وانطلاق في رحاب من اللهو عراض .
 فوق مقدوره أن يحجب عن أنظاره بعد الساعة ما في الدنيا
 الواسعة من مباهج وألطف .

وتفلنت منه نظرة إلى الحارة وهو عن كذب من النافذة
 فألفاها تمرور بالحركة وتمرح في الأضواء .

وما عثم أن تراءت له في أقصى الحارة قهوة « السرور
 والأمل » أكثر ما تكون إغراء ، فقد تدلى من جبينها مصباح
 نفض يتوهج ، وقد أخذ في زهو يبعثر بسماته المشرقة يمنة ويسرة
 كلما هزته خطرات النسيم .

ولم تكن أذناه بأدنى حظاً من ناظريه ، فقد ترسلت
 عليهما أنغام شجية ، من مذياع القهوة ، فحركت في نفسه
 كوامن المشاعر ، فانبعث ينقر حافة النافذة بأصابعه لاهياً
 يسائر الإيقاع .

ومثل العتر يتمطى باسطاً أوصاله الحاملة ، وقد فرطت
 منه تثاروبة عميقة كأنما تزيج عنه التبلد والحمود .

ماذا يضيره إن انغمس في غمار هذا النشاط البهيج ؟

قدح القهوة لن يبتز من جيبه إلا قرشاً ، وإن تمادى في عبثه فقرش آخر يؤديه لقاء لعبة الرد .

ومن يدري ؟ ربما يعلو حظه فيربح من المراهنة عوض ما يدفع في القهوة شهراً أو يزيد .

وما هي إلا أن زایل قمقمه وخرج إلى الشارع يلتقي بالحياة فتترنج أعطافه ترنج الرضا والاستبشار .

وكلما نشطت خطاه تدانيه من القهوة توضحته له عامرة الأرجاء يسودها نشاط متجدد .

أين هي من حجرتة المتفردة وقد لفظها البيت على سطحه نائياً بها عن أطايب العيش .

القهوة ولا جدل هيئة المنظر ، شرقة الجدران بأبحرة لفائف التبغ والتراجيل تتعقد في سمائها كغمامات زرقاء .

وهي فوق هذا مجتمع أسقاط الحارة من الشبان المتسكعين يختلفون إليها ما غابت الشمس وسجا الليل ، لا مشغلة لهم إلا المشاكسة والشجار ، وقد تتعالى أصواتهم جهورية الجرس لا تحسن إلا التفوه بالمتهافت من القول والتافه من الحديث .

ما كان « لمحسن العتر » أن يلجأ إلى مثل هذا المتندى الرخيص لو أن جيبه المفلس عامر بجنيهاة العشرة .

أما يكفيه الليلة أن يأنس بذلك المذيع وهو يغرد تغريده
المانوس والسمار من حوله يرددون الآهات كلما هب عليهم نغم
حنون .

أما يكفيه منظر خادم القهوة وهو يخب في أطماره البالية
ينحوض طريقه بين المناضد ، يجيب هذا إلى مطلبه وينحني على
ذلك يسأله ما يطلب ، وإذا ما رفع عقيرته بالطلبات ، مطط
حروف كلماته في ترنيم يلذ للأسماع .

أما تكفيه هيئة المعلم «سرور» صاحب القهوة وهو مستديك
على مقعده كالصقر المجنح يتابع غلامه في بالغ من الحرص
محصياً عليه الحركة ، وقد استوت أمامه النارجيلة تتوهج على
رأسها الأغبر قطع الجمر كلما جذب إلى صدره منها نفساً ،
وكرشه المنتفخة ترنح على فخذه في بدانة وترهل .
كل ما في القهوة يدخل عليه الرضا والسرور .

وجلس « العتر » يشغل نفسه بجريدة مسائية أهملها أحد
السمار بعد أن اشتف منها عصارة الأخبار ، فالتى بها حيث
هى على المنضدة ورحل .

وتناولها صاحبنا يقلب صفحاتها ملولاً ، وعيناه تتواثبان
على عناوينها البارزة دون أن يشغل باله بنجايها السطور ، حتى

تعثرت آخر المطاف بعنوان ضخم لقصة أثارت فضواه ، وألهمت فيه حماسة القراءة ، إذ كان ممن يستهوهم الأدب وخاصة القصصى منه ، وفوق ذلك فصاحب القصة علم من أعلامها ، ونخدين له ، درسا فى مدرسة مشتركة وهما فى ميعة الشباب .

لقد حمل كل من الزميلين لصاحبه ذكريات مشحونة بحقد وبغضاء ، لما نهبت بينهما من تنافس على قلب امرأة : فتاة من فتيات الليل لا ضمير لها ولا قلب ، تهب حبها عطية ميسورة لمن يغدق عليها المال فى سماحة وسخاء .

ظفر بها العثر على منافسه الأديب .

لم تكن الحيلة تعوزه .

إن أباه من هواة التحف الأصلاء ، له منها مجموعة فريدة تتناقل حديثها المحافل والمجتمعات .

وامتدت يد « العثر » تعبت بها ، فكان ينفق على غانيته ندى الكف بما يتوفر له من مال أبيه المساوب .

ولما افتضح أمره طرده أبوه من المنزل بمسك عنه ويضن عليه ، فتقطعت به سبل العيش ، وتنكرت له الغانية ، وناصبته العدا .
وها هو ذا يصبح تافه الشأن مطمور السيرة يتكسب فى غير يسر .

ونشط « محسن العتر » يقرأ الصحيفة وعلى فمه تتموج بسمه شاحبة ثم عن حفيظة وغيط . إن القصة تفيض بالأحداث المثيرة والمواقف العنيفة في أسلوب شائق ، وحبكة فنية وخيال خصب ، وسمو من تفكير .

وصفق « العتر » يطلب قدح قهوة ثم أشعل لفافة تبغ ، واسترخى في جلسته يتابع المطالعة .

والنبي « العتر » نفسه وسط زوبعة عارمة ، فريسة لغضب جامع ، وثورة عمياء .

تبين له أن صديقه الأديب قد عرج على الماضي يستخرج الحوادث السوالف من لفائفها ينمق بها قصته .

لقد أطلق اسمه على الشخصية الأولى كاملاً دون تبديل أو تعديل ، ووصفها بكل مرذول من النعوت ، فهي دنيئة المنبت ، خبيثة المقصد ، منطوية على شر .

وتملأ « العتر » في جلسته يعرض على نواجذه .

كيف يزج باسمه في قصة محورها الأول والأخير جريمة غش وخداع وتزوير ؟

هل ابتغى صديقه الأديب أن ينتقم منه معيداً إلى الحياة ما أسدلت عليه أستار النسيان ؟

كرامته أهدرت لا ريب . . . أهدرت على نحو مبتدل
لا يرتضيه حر .

لا أقل من أن يثور لشرفه المسفوح ، وكرامته الجريح .
وطوى الجريدة يدسها في جيبه وفي نفسه عزم على قصاص .
ولمعت في رأسه فكرة .

عليه بصديقه القزم « سعدون » وكيل المحامى . . . لا مرية
أنه واجد عنده السلاح القاتل الذى يبحث عنه .
عليه به دون إبطاء ، وإن كانت الصلة بينهما قد انقطعت
منذ وقت سلف ، إثر شجار هب بينهما ، كالإعصار الجارف ،
وهما يلعبان الورق ذات ليلة .

لقد تبين لـ « سعدون » أن صديقه « العتر » يخفى في كنه
بعض الورق ، فإن خذله الحظ ولاحت الحسارة والهزيمة ،
استجدى كنه يطلب منه العون والتعويض .

تبين لـ « سعدون » أن صديقه مخادع محتال . . . لص غشاش .
لم يتالك « سعدون » فنعت « العتر » بالمخادعة واللصوصية
على مرأى ومسمع من الأَشْهاد في صوت جهير كأنه هزيم الرعود .
وزجره « العتر » فلم يمتثل بل تمادى يلعن ويسب في جرأة
وحماس .

وتظاهر «العترة» بالثورة دفاعاً عن شرفه ، وسرعان ما
نشبت بينهما شجار .

وشيع «العترة» القهوة في تلك الليلة المشثومة متورم
الأنف ، تظل إحدى عينيه غمامة زرقاء .

صدف «العترة» عن قهوة «السرور والأمل» تهديده قدماه
إلى حارة متربة غير ممهودة بحى القلعة ، وصعدت به أربع
طبقات إلى حجرة تشبه الجحر من منزل متوحد يشرف على
خرائب ثلاث .

ومد ساعده إلى الباب ينقر عليه في رفق ، ولما لم يُعجب
إلى ندائه احتدّ في طرقة حتى وضح له من خلف الباب
الزجاجى شبّح «سعدون» قادماً مترنح الخطو : عود متقاصر ،
وظهر مقوس يحمل بين كتفيه حذبة كأنها سنام بعير ، وقد
أمسك «ساهرة» عكرة الضوء ، فيها شمعة ترنح ذبالتها من ضعف .
وانفرج الباب .

وتواجه الصديقان .

فعجل «سعدون» إلى مصراع الباب يوصده ، لولا أن مد
«العترة» قدمه يحول بين «سعدون» وما يريد .
وزار القزم في توقع يقول :

- ماذا تبغى . . . ليس لك مكان هنا . . . انصرف . . .
 ما بيننا انتهى . . . قطع إلى الأبد .
 ولاح « للعر » أن صديقه القزم مخمور تتلاعب برأسه
 الصهباء ، فاستبشر خيراً ، وواجهه في مسكنه يقول :
 — ألا تمد يد العون إلى صديق مأزوم . . . في حاجة إليك ؟
 — لا يهمنى . . . ليس ثمة صداقة تربط بيننا .
 — ألا تغفر له إساءته لك .
 — لست الله لأغفر الذنب .
 — وإن أذاك تائباً يطلب عندك العفو والصفح .
 — الله وحده صاحب العفو .
 — ألا تتذكر العيش والملح الذى تقاسمناه وأكلناه معاً . .
 — أتذكر أنك خدلتنى . . خدعتنى . . غررت بى . . .
 سلبت مالى . . . كفانى هذا القدر .
 وترنح « سعدون » فى وقفته وأوشك أن يتهوى ، فخف
 « العتر » إليه يسنده ، وتناول منه « الساهرة » كيلا تندلق فتندلع
 منها النار .
 لم يكن بالحجرة أثاث إلا متكأ من الخشب هزيل ، ومقعد
 تفسخت قوائمه وانتفشت حواشيه ، فاتخذ « العتر » لنفسه

مقاماً ، مخلياً المتكأ لصديقه القزم .

ولما استوى « سعدون » فى مكانه ، واطمأن فى جلسته ، انبعث يبحث عن زجاجة الخمر ، وأقامها إلى فمه يعب منها ثم قدمها إلى صديقه « العتر » الذى كرع منها كرة مديدة ، فلما أحس بوقدة الشراب تسرى فى أوصاله ، أرجعها إلى صديقه القزم .

ولما ألفاها « سعدون » فارغة شهرها فى وجه صديقه وهو يجمع فى صوته الخمر :

سوف أحطمها على رأسك وأنتهى منك . . . ما الذى ساقك إلى هنا تعكر صفو أنسى . . . هيا ، عليك بالباب .

وغمغم « العتر » فى انكسار :

أهكذا يستقبل الصديق !؟ . . .

— دعنى لزجاجتى هذه . . . كلانا صديق الآخر . . .

هيا . . . ارحل ؛ عجل وإلا هشمته على رأسك .

لم ينبس « العتر » ، وقصد النافذة يفتح وصاوصها ، فغزا الحجرة نسيم تشيع فيه أنفاس المساء ، ثم قفل إلى صديقه يبسط الجريدة بين يديه ويدوك تلك الكلمات بين شذقيه :

هذه هى التى دفعتنى إليك . . . ثمة ثأر يؤخذ وشرف

يرد . . . مسألة قانونية أود رأيك فيها .

ظل « سعدون » صامتاً كأنه يشحذ ذهنه مستوحياً الفكر .
كان رجلاً كريم الخلق ، صاحب مروءة وفضل ، إن هو
استشير في أمر نسي حقه وشمر عن ساعديه يسدى النصيح .
كيف يبخل برأى على مأزوم ويأبى الدفاع عن مهزوم ؟
أليس المحامى فى ساحة العدل جندياً وهب نفسه ووقف
علمه دفاعاً عن حق مهضوم .

وما « سعدون » القزم إلا ذلك الجندى الذى يساند العدالة
ويساعد القانون وينصر الحق .
وبعد لأى انعطاف على صديقه « العتر » يربت يده
ويسر إليه قوله :

ما الوقائع . . . على بها . . . اقتضب فى السرد . . .
كن واضحاً . . . أبرز موضوعك دون إسراف فى قول . . .
الاقتضاب خير دليل على الصدق .

وأذن « العتر » لما أمر به ، وتناول قصته فى إيجاز ،
و« سعدون » يسمع إليه بملء أذنيه .

فلما تزود بما أراد صدرت منه إشارة إلى صديقه يسكته .
وغاب صوت « العتر » وهو يردد قوله :

أكفاك ما سمعت ؟

— أوتحسبني غيباً لا أعي . . . حسبي منك إشارة أو
تلميح كي ألم في غمضة عين بنجيئة الأمر .

— ألسـت على حق . . . طمئني حماك الله .

— التشهير واضح . . . سوء النية متوفر . . . خصمك
في قبضتنا . . . دعواك حتماً رابحة . . . غداً أكتب عريضة
الدعوى . . . وبعد غد أتقدم بها إلى القاضي أثار لك
وأقتص . . . سأنتزع منه الحكم الذي ترضاه في الجلسة الأولى
ولا ريب . . . عول على . . . « سعدون » يعرف من أين
تؤكل الكتف .

وهتف « العتر » وقد لعبت برأسه الخمر :

نعم المدافع أنت !

واعتدل « سعدون » يجيب صديقه مغمغماً :

لى شرط .

— شرطك مقبول على العين والرأس .

— ماذا يكون نصيبي ؟

— ماذا تعنى ؟

— الأتعاب !

— لك ما شئت . . .

— التعويض . . . نتقاسمه !

— اتفقنا .

— سجل ما قلت .

وسجل « العتر » ما أملاه القزم عليه في ورقة بالية قدمها له « سعدون » وبعد أن مهرها بإمضائه دسها « سعدون » في جيبه ؛ ثم انعطف الصديقان يتدارسان خطط الهجوم ويقرران تفاصيل المعركة ، وكلما شدد « سعدون » هجومه يكشف مواقع الضعف من خصمه انسرح « العتر » في تفكير يحصى الغنم ويعد أوراق النقد وكأنها نجوم لوامع تهبط من السماء تغرقه في بحبوحة من العيش .

وسرعان ما نال الجهد من الصديقين فانكفا كل على صاحبه ، وما لبث أن تعالى في الحجرة غطيط على حين لاحت تباشير الفجر في الأفق تؤذن بمولده يوم جديد ، وقد ارتسمت على قسماات وجههما ابتسامة بلهاء تنبئ بما يتخايل في رأسيهما من أفكار ثراء عريض .

نور وهّاج

قصة سمعتها في صباى ، أعرضها عليك ، غير معنى
بتجويد أو تنميق ، إنما أنا أسوقها إليك في بساطتها كما وعيتها
منذ سنين .

صاحبها الأوحى ، غطريف من غطاريف الريف
الموسرين ، لم يكن يقبض يده عن مبرة ، ولا يحجبها عن فضل ،
فما فتى بابه مقصداً للعفاة السائلين ، يتحلقون عليه في كل
يوم ، راصدين السبيل .

إن هو أهلّ عليهم ، بذل يده بالعطايا والهبات ، لا يصرف
عنه أحداً منهم إلا عامر الكف ، ندى اللسان بالمدح والدعاء .
لقد أضحى غطريفنا ، على مد السنين ، نابه الذكر ،
تداول الألسن اسمه في أحاديثها ، حتى عرفته القرى النائية ،
في أحشاء الريف البعيد ، فاهتزت لكرمه ، تصدر إليه بضاعتها
من عفاة القوم ، كأنه المنارة المتألقة ، تهدى إليها في خضم
الحياة ، التائه والشريد .

ويوماً وفد على القرية وافد هو عنها غريب ، يطوى فى ردايه
 طيف المذنون ، إذ تفشى فيها وباء خبيث ، لا يرحم صغيراً
 ولا كبيراً ، إلا استلبه من أهله ، كأنما يتقاضاهم ضريبة محتومة
 الأداء ، فيشهدك كل يوم جدثاً رطباً جديداً ، تنضم جنباته
 على رفات من أهل القرية عزيز .

لم يأل غطريفنا جهداً فى مواساة جيرته ، باذلاً لهم المؤن
 والعقاقير ، حتى تغشته غاشية المرض ، فلزم داره ، صريع
 الحمى ، ليستبين فيه نذير الفناء المحتوم : وجهه شاحب مصفر ،
 وصدره يعلو ويهبط ، وفم منفرج ، يتلمس أنفاس الهواء
 لصدره المقرور .

وما إن دنت ساعته ، وحان أجله ، حتى صم صموة
 الموت ، وثاب إليه وعيه ، فغمغم متثلماً الصوت :
 اللهم هذا مصيرى المحتوم . . . فما مصير فقرائى المحاويع ؟ !
 ثم أغمض عينيه ، يجود بأنفاسه .

وصعدت روحه إلى بارئها ، تسكن جنة الخالدين ، ما فى
 ذلك خلف ولا تكذيب .

هذا ما كانت تخوض فيه معارف الرجل ، وهم من وراء
 نعشه ، يشيعونه إلى مقره الأخير .

ولغطريقنا الراحل ، خدين لازمه مند الطفولة الباكرة ،
إذ ضمتهما إليها مدرسة واحدة ، ومن ثم تواصلت بينهما وشائج
ألفة ومودة ، ما زادتها الأيام إلا تأصلا وقوة .

لم يكن بينهما سر مطوي ، أو خبر مستور ، فكلاهما ينفض
جعبته لصاحبه في مصارحة وصدق .

وجلس الخدين في مأتم صديقه الراحل ، يتقبل فيه
التعزية ، وقد انسرح به الفكر ، يرده إلى عهد الطفولة اللاهية :
واستبان له فناء المدرسة العتيد ، يفور ويمور بالتلاميذ ،
وتبدى له غلامان لم يتخطيا العاشرة بعد ، كلاهما دائب التوثب
والمرح ، وفي يد كل منهما قطعة من الحاوي يحشو بها فمه ،
والأخذان من حوطهما منصرفون إلى لهوهم يتصايحون و يتلاعبون .
وما يعتم الناقوس أن يدق دقات معلومات ، هي إشارة منه إلى
بدء الدراسة . فتخفت الحركة ، ويسود الفناء سكون ، ولا يلبث
التلاميذ أن ينتظموا في سطور متساوية كأنهم جند مصفوف .
وتصدر من ناظر المدرسة إيماءة ، يتحرك في إثرها ذلك
الجمع ، صاعداً إلى فصول الدرس والتحصيل ، في نظام وخشوع .
ويمتاز يوم الاثنين في هذه المدرسة على غيره من أيام
الأسبوع بشرف عظيم ، ذلك أنه الموعد المضروب الذي تجمع

فيه هبات الأريحيين من التلاميذ ، صدقة خالصة لوجه الله ،
تبدل بالطوع ، فليس على من يحجم عنها من تريب ، وليس
على من يقدم عليها من عنت .

كان لكل فصل رائد يجمع التبرعات ، في يده سفظ
مهندم صغير ، يتلقى فيه من أقرانه ما تسخو به أيديهم وتجوّد .
وكانت التبرعات تجمع عادة ، في درس الدين ، فما إن
تسفر عمامة الشيخ « خير الله » على باب الفصل ، حتى يصدر
أوامره بجباية الصدقات ، فيطوف رائد الفصل ، بين أقرانه ،
بالسفظ يثقله بالمنح والهبات ، ثم يرتد إلى الشيخ « خير الله » ،
يفرغ بين يديه ما اجتمع لديه من عطايا ، فيزيدها الشيخ بخمسة
مليات ، هي فريضته التي آلى على نفسه أن يؤديها في الأسبوع
بعد الأسبوع ، يجعلها قدوة حسنة ومثلاً يحتذى . وسرعان ما يصر
النقود في منديل مخطط عريض يحكم عقده ، ويستوعبه صدر قبائه
في عناية وحرص ، ومن ثم تبدأ الدراسة في نشطة ، واسطرة « سيدنا
الشيخ » على أيدي المتخلفين من تلاميذه صولات وجولات .

إن الشيخ « خير الله » رجل صالح ، وادع بالخير ،
مطبوع اللسان على ذلاقة وحسن بيان ، قصارى همه حض
الناس على تقى وصلاح .

منطقه في ذلك هو منطق الدين الخفيف ، إذ لا سعادة في مجتمع ، يقوم على الأثرة والأنانية .

وكثيراً ما اقتطع من الدروس وقتاً ، يبسط فيه ما لصنائع المعروف من بركة ونفع ، مهيباً بأبنائه التلاميذ أن يقتصدوا في نفقات لهوهم ، ليقدموا مدخرهم حسبة لوجه الله ، كي يعين أسرة اغتال المرض عائلها أو كسيحاً التقتت السيارة ساقه ، أو مقعداً لا قدرة له على تكسب وعمل . وما يزال مسهباً في عظاته حتى ينجتئها وهو يمسح على وجهه ، بالقول المأثور : « الحسنه بعشر أمثالها » .

وما أكثر ما كان الصبي يخلو بالشيخ « خير الله » ، في غير أوقات الدرس ، يسأله في أمور الدين ، ويتفقه على يديه ، فما سنحت لتفكيره مسألة إلا شاوره فيها ، مستلهماً منه طريق الاستقامة والفلاح . وما بخل عليه الشيخ بشرح ولا ضمن بجواب ، متوخياً أن ينزل قوله من نفس الصبي منزلة الفهم والاقتناع .

على هذا النحو جاء ذلك السؤال على لسان الصبي في وقفة مع الشيخ :

بنى الإسلام على خمس ، فأياها أفضل عند الله وأمثل ؟
فهمهم الشيخ « خير الله » ، وهو يسبل جفنيه :

كلها عند الله سواء .

— أليست الصلاة أحق بالاتباع ؟

— الصلاة يا بنى تنهى عن الفحشاء والمنكر ، ولكن
لا تنس الزكاة ، فهي للفرد تطهير وللجموع مؤنة ومعونة
وإسعاد . . . طوبى لمن أدى الزكاة . . . جنة الخلد مأواه .

فتبرق عين الصبي قائلاً فى تشوق وحساس :

وما الجنة ؟

ويجيب الشيخ « خير الله » متخشع الصوت :

هى الدار الآمنة التى لا شقاء فيها ولا نصب .

— أقصر كبير هى ؟

— بل قصور فياحة ، تجرى من تحتها الأنهار ، فيها من
ألوان النعيم ، وأسباب المتاع ، ما لا عين رأت ، ولا أذن
سمعت ، ولا خطر على قلب بشر .

ولن هى ؟

— لمن عمل صالحاً ، وآتى المال على حبه ، مسكيناً ،
ويتيماً ، وأسيراً .

وينصرف الصبي من حضرة الشيخ ، منتشى النفس ،
مشبوب الفؤاد ، تلوح له الجنة بما حوت من أطيب النعم ،

وكانها من خياله الساذج ، مدينة متراحة الجنبات ، تزخر بأبنية وقباب ، أحجارها من زمرد ، وأبوابها من ذهب ، تشقها أنهار ترفرف على حفافها الشجر محملة ببيانع الثمر ، وعلى صفحة مائها الموج تهادى زوارق مختلفة الشكول ، يمرح فيها أطفال كأنهم اللآلى ، وينبعث منها شدة راقص طروب ، فما يعكر صفو راكبيها رنين كأجراس الدرس ، ولا مسطرة زاجرة ، ولا نظام صارم وقيود .

فلا يملك الصبي المفتون بأخيلة الجنة إلا أن يعجل إلى خدينه يناجيه بذات نفسه ، وهو يقول له :
 ما أجمل الجنة ، وما أطيب العيش فيها . . . في مكتك أن تناولها . . . صدقة طيبة ، كفيلة بأن تفسح لك فيها أكرم مكان . . . المأفون هو الذى لا يتخذ سبيله إلى الظفر بهذا المتاع المقيم ، مهما كلفه ذلك من سعى وجهد وحيلة .

وشغف الصبي بهذا الحديث ، فما لقي خدينه يطارحه الكلام ، إلا كان للجنة فى تحاورهما حظ كبير .

وفى يوم الاثنين من أحد الأسابيع ، جأر الشيخ « خيرالله » بجابيه أن يجمع الصدقة ، فتسارعت الأيدى تمطر السفط المهندم بقروش هينات ، إلا الصبي ، فكانت عطيته فى هذا اليوم

قطعة فضية قشبية السبك ، رفيعة القدر .
وتجلت القطعة الفضية بين القروش المطموسة الكابية ،
تلتمع كأنها قمر ساطع ، يزهو بنفسه ، ويتناول بالألأته على
كاسفات النجوم .

واهتز الصديق الرائد ، يبادل صاحبه نظرات عجب
وفخار ، فما أسرع أن أزاغ الصبي بصره ، يتشاغل عنه ،
وأطرق يعبث بصفحات كتابه ، محتقن الوجه .

لم يكد المندبل المخطط العريض يستقبل جباية اليوم ، حتى
انثنى الرائد على أذن «الشيخ» يهمس إليه ، وهويوئ طوراً إلى
قطعة النقود الرفيعة القدر ، وطوراً إلى الصبي الذي ما زال منكباً
على كتابه يعبث به ، مستطار الوجدان .

وما هي إلا أن سمع اسمه ينادى ، فأسرع واقفاً يلبي النداء ،
ناكس الرأس ، يتلاعب بحاشية كتابه ، وقد تخايلت على
محياء علائم استحياء .

وصدع الشيخ « خير الله » يقول :
ارفع رأسك يا بني ، فما الساعة ساعة خجل وتهيب . . .
من كانت أريحته هذه ، استحق موفور الثناء .
وبلغ الحماس بالشيخ كل مبلغ ، فارتجل خطبة رنانة

طنانة ، يطرى فيها صنيع ذلك الأريحي المفضال ، حائثاً أقرانه
أن يحلوا حذوه ، ويرتسموا خطاه .

واختتم الخطبة ، وهو يهتف من أعماق قلبه داعياً له
بالتوفيق وحسن الجزاء .

وانتهت الحصّة ، وتفرق التلاميذ في فناء المدرسة يلعبون ،
وانبعث الخدين يتفقد صديقه ، فظفر به في ركن قصي ،
ولم يكن مرحاً كعادته ، فهو عاقد الجبين ، ضارب يديه في
جيب سرواله ، مطأطئ الرأس ، يركل الحصيات في حدة ،
وقد استبد به تفكير دفين .

فأقبل عليه الخدين يزحمه بالتهنئة ، ويمتدح ما أعطى
مبتهج الأسارير .

فغمغم الصبي يقول وهو على حاله :
اتركنى وشأنى . . . أنا لا أستحق كل هذا التمجيد .

— بل تستحق كل التمجيد .

وأطرق الصبي هنيهة ثم انبعث فجأة يقول :
أفى مستطاعك أن تسأل شيخنا عن السرقة ، إذا اقترفها
الولد من مال أبيه ؟

فعجب الخدين لهذا السؤال المفاجئ ، وأدرك أن فى

الأمر خبيثاً ، فجمعهم يقول :
لا تكتم عني ما في نفسك.. وأنا أستفتي لك شيخنا كما تريد .
ومرت فترة صمت ثقيلة ، قطعها الصبي بقوله :

لا تدهش ... لقد سرقت اليوم ... تم ذلك وأنا في
حجرة أبي على مألوف عادتي كل صباح ، أفتح كيس النقود
لأأخذ منه مصروف يومي المقدر ... فما إن ثأب الكيس بين
يدي ، يحفل بما احتوى من قطع فضية لوامع حتى هتف في
أذني هاتف كأنه صوت الشيخ « خير الله » يهيب بي أن يكون
مني لصدقة يوم الاثنين نصيب موفور ...

تهيب بادي الأمر ، بيد أن همسات الصوت اشتدت
وطأتها عليّ ، وألفيت يدي تنجذب إلى النقود تختطف قطعة
فضية رفيعة القدر . . . وهاجمني في ذلك الحين صوت أبي :
ماذا الذي أبطأ بك . . . ؟ أضللت نخباً النقود ؟ . . . الكيس
أمامك بجوار المرأة ... فبادرت بإخفاء ما أخذت من النقود في
جيبتي ، ورددت الكيس مكانه ، وانصرفت عن الحجرة في تلصص
ومحاذرة ، أستجدي طمأنينة البال من أنفاس النسيم .

وأمسك الصبي عن الكلام ، يحفف ما تفصد على جيبته
من عرق ، ثم جمعهم :

أسارق أنا . . . ١٩

وكست الكأبة وجهه ، ، وخنقه النشيع .

ومال عليه الحدين يربت كتفه ، ويهدئ من روعه :

لا تبتشس . . . ما أخذت لنفسك . . . لقد ابتغيت

وجه الخير . . . أنت حسن النية . . .

فقال الصبي في صوت خافض :

ما بالي لا أتصدق بمصروف يومى ؟ لقد أثمت فيما فعلت .

لن ينال اللجنة سالب أثيم . . .

لم يمهل الناقوس الصديقين ، فقطع رنينه المشوم عليهما

الحديث ، وهو يلم شتات التلاميذ ، فهرع الصديقان إلى

الصف ، ينتظمان فيه .

واستقبل الصبي حصّة الحساب ، وهو في قلقه ، يعانى

حساب الضمير ، فما أتقن الفهم لمسألة تعرض ، ولا أحسن

الإصغاء لحل يشرح ، بل غاب في تفكير محتدم ، يستشعر

الضيق ، وكأنه يسير في طريق افترشته الأشواك ، تدمى قدميه .

وما لفظ اليوم أنفاس الأصيل ، حتى انتشرت التلاميذ

في الشارع العريض ، جماعات في ضجيج ودوى . وتحلق نفر

منهم حول عربة لبائع هرم ، حافلة بألوان الحلوى ، فأقبلوا

عليها يتخيرون منها وينتقون ، لا يفتر مطلب لهم ، ولا ينضب سؤال ، والبائع الهرم مقبم بينهم كانهحلة الدؤوب ، تستجيب للطلبات في طوعية واستبشار .

وجذب الحدين صديقه يهمس لايه :

علينا بمؤنتنا اليومية من الحلوى قبل أن يستنزفها الجمع .
ووقف الصديقان حيال العربية ، تتناول أنظارهما إلى ما حوت من لطائف ، ينتظران دورهما في زحمة الرفاق .
لم يكن الشارع العريض ينفرد بتلك العربية وما حوت ، بل هو زاخر بأشتات الجوانيت ، وأصناف الناس من وافدين وقاطنين .
ومن قصاصد الشارع كومة بشرية ، هي امرأة ضريرة ، مجللة بالسواد ، تأخذها العين عن كذب من جدار المدرسة تنفياً ظله ، في أسمال بالية ، ترتل آي الذكر الحكيم ، في صوت راتب حزين ، كلما تغنت بالآيات المحكمات هزت رأسها ، متميلة به ذات اليمين وذات الشمال ، وتطاوأت به طوراً وتقاصرت كأنها تطلق عينيها المطمرستين ، سهاماً نفاذة ، لتصيد بها سواطع الأضواء .

على ركبتها طفلان في مزق مهلهلة ، وقد أمسك كل منهما بكسرة ، يعف عليهما ذباب .

وتنقطع المرأة عن التلاوة في الفينة بعد الفينة ، تسكت المتباكى ، وترد عنه جوار أخيه الذى شغب عليه .

وراع الصبي صنف جديد من الحلوى مثل اه يتلألاً في لفافة فضية لامعة ، فتحمس يسأل عن ثمنها ، ولما أجيب عن سؤاله ، أخذ يحصى ما فى جيبه من قروش ، وتلفت يتفقد صديقه ، فوقع بصره على تلك المزة البشرية وطفليها المحرومين ، وقرع سمعه صوتها يتلو قوله تعالى :

«هل جزاء الإحسان إلا الإحسان ، فبأى آلاء ربكما تكذبان؟»

فوقف الصبي بين المرأة والحلوى ، مقسم النظرات ، وابث فى موقفه لا يحسن من أمره إلا التحير والتردد والإحجام .

وسرعان ما اندفع الصبي نحو الكومة البشرية ، يستودع يدها مصروف يومه ، وانطلق يعدو على الطريق ، فى خفة ويسر ، كأنه ملك مجنح ، يصعد إلى سماء الخالدين من بررة وأخيار .

وأفاق الخدين من ذكرياته التى تراءى فيها طفولة صديقه فقيد اليوم ليجد قدميه تسوقانه إلى مدينة الصمت والظلام ، حتى مثل على قبر صديقه يقرأ الفاتحة ، وقد انبثق لعينيه من غيابات القبر نور وهّاج .

سيكس أبيل

مثل الفتى نجائى فى حجرة مخدعه ، قبالة صهوان الثياب ،
بعد أن فتح مصراعه ، يتخير منه حلة تأهباً للرحيل .

وأقبل على المرأة الكبيرة التى تبدت له ، يعقد رباط الرقبة ،
ويحكم وثاقه حول عنقه المكتنز ، ولم يكن قد ارتدى سرواله
بعد ، وما برحت قدماء العاريتان ، ترنحان فى خف منزلى
أدكن قد تأكلت زواياه .

وأطال الفتى من وقفته يتملى رباط الرقبة ويعنى به ، حتى
ضبط عقده ، وأحلها من البنيقة ، وسطها المختار .

ولما فرغ منه ، اجتذب سرواله ، وهم يدخل فيه ، وما إن
رفع ساقه يكمل زينته ، حتى جمده يتوسم طيفه ، والدهشة
آخذة به ، والتعجب يغشى ناظره ، كأن لقاء اليوم الذى تم بينه
وبين صنوه على صعيد البلور الشفيف ، هو أول عهده به .

عجباً ! أياكون هو هذا الخلق الشائه : أنف أفتس التحم
بوجنتيه ، وعينان غائرتان تضايقت حدقتاهما ، وتثلم جفناهما ،

فتناثرت الأهداب في منابتها ، مصبوحة كأنها أعواد الهشيم ، يظلها
حاجبان متورمان ، ينفر منهما شعر غزير .

أما الساقان فنفرجتان في انبعاث ، انتفش عليهما الشعر
كثفاً كثيفاً ، وأما القامة فتقاصرة في تكتل ، وقد تدايت منها ،
حتى لامست ركبتيه ، ذراعان مغرقتان في الطول ، أثقلتا
كاهليه ، فانعطف رأسه ، وانحنى هامته ، وتأود ظهره ،
فكأنما هو القوس ، يسعى بعضه إلى بعض ، من طرفيه .

عجباً ! أياكون هو قرداً آدمياً ، افظته الأحرار متكرة له ،
فغدا في خضم الحياة ، طرفة تثير بغرابتها التعجب والفضول ،
أم هو فضلة من حطام بشرى ، غفل عنه القدر ، حين كان
في الأحشاء جنيناً يتخلق ؟ فما أوى القدر ظهره ، يتشاغل عنه
حتى غشى الأحشاء اضطراب ، وكأن الماء الذي يحتويه ،
ويدفع فيه الحياة ، بحر مائج غضوب حفل بالمكاره والأخطار ،
وسرعان ما هبت عاصفة نكباء ، تسوى منه في استخفاف ،
ذلك المسخ الآدمي ، آبية أن يرتفع صرح بنائه ، على توافق
وتآلف وانسجام .

ولما أقبل القدر ، يتفقدده ايعاود رعايته ، كان البناء قد تم
تشبيهاً ، يسود خلقه تنافر وتشاتم وخصام .

وانسرح الفتى يقلب في المرأة ناظريه ، في تكبره وستنكار ،
وعلى محياه مسحة من كآبة وشحوب .

لا مرية عنده أن الذى شاهده هو هفوة من هفوات البصر ،
خدعته ، كما يخدع السراب النظر وهو يتألق على بسيط
الرمال ، تألقه الموج ، تحسبه العين ، على البعد ، ضوء الماء
الألاق ، وقد نالت منه أشعة الشمس ، تلفح صفحته ، في
رحاب الفضاء العسجدى .

أبغدر به هذا الأعجم المارق الغرير ؟
أليس جزاء الغدر إلا الغدر والتكيل ؟

أحجى به ، أن يجمع أنفه ، ويشج هامته ، ويسمل
عينيه ، ليهشمه جملة ، يريح النفس من عناء وجهه الأغبر
الكؤود ، ليجعل منه أحدىثة تتنادر بها الأفواه ، وأثراً تغفوه
الرياح ، وتنشق في خرائبه البوم .

وهم نجأتى ، ينفذ ما انتوى ، حين تراقى إلى سمعه صليل
البحرس يعوى في أذنيه عواءه الموصول ، فأرتج عليه ، وسحارت به
قدماه ، وما برح سرواله متشعباً على خاصرتيه .

واستبد وجيب البحرس ، وكأانه سوط يلهب أعصابه
بفرقته ، فهرول صوب الباب يزجر ويجمجم ، تتشاغل يسراه

بنطاقه الجلودى ، يلفه حول كرشه فى تعثر ، على حين تلاعبت
 يمناه بمزلاج الباب ترفعه ، ووجهه محترق من غيظ .
 وتثائب الباب .

وبدا له ، من فرجته وجه مطهم مشرب بحمرة ، وقامة
 فارعة ، يكسوها لحم شحيم ، فتبين على الفور ، صديقه
 « عبد الباسط » ، زميل الدرس ، ورفيق العمر .
 و « عبد الباسط » هذا فقى فى شرح الشباب ، اتسم
 بالكمياسة والظرف ، ضاحك الأسارير ، لا تفارق البسمة شفثيه ،
 مشغلته الكبرى فى الدنيا ، وليمة فاخرة تحفل بصحاف الطعام
 الشهى ، وتفخر بخمر معتقة تتلأأ فى أكوابها الشفافة ، تفغم
 الأنوف بشذى رحيقها الفواح ، وكأنه عبق الورد النضرات
 تحملها ، عند الأصيل ، أنفاس النسيم ، إبان الربيع .
 ومتعته مجلس أنيس ، يطيب له المقام فيه ، يطارح رفاقه
 المعابثات والأضاحيك ، ولا يابث أن يتصدر الجمع ، يؤنسهم
 بألوان من المفاكهة والمزاح ، لا يمل ولا يكل ، وهو يرددها على
 مد الساعات ، فى تملل وتهريج وتصفيق .

وظل الفقى نجائى ، قابضاً على مصراع الباب ، لا يفسح
 منه إلا فرجة ضيقة ، يملك بها على صديقه الطريق .

وانحنى « عبد الباسط » يحويه تحية الإصباح الندى ،
والابتسامة الخالدة ترف على شفثيه ، فلم يبادلته الفتى نجاتي
التحية ، وما زال يحدجه ، دون أن ينبس .

وعجب « عبد الباسط » لهذا اللقاء الجاف الذي استقبل
به ، واستجمع يدفع الباب بمنكبيه ، فراحبت فرجته ، تهدي
إليه الطريق ، على حين تقهقر نجاتي متعثرة به خطاه ، وقد
صك الباب جبهته ، فترنح يرتطم بالجدار ، وتساند على الحائط
يحمي نفسه بكتلتا يديه ، من سقطة محققة ، فانزلق سرواله
متجمعاً على الأرض ، يقيد قدميه .

واقترح « عبد الباسط » الشقة يزجر ، محتد النبرة :
حقاً إنك تفتقر إلى كياسة وأدب . . . أحييك فلا تجيب .
وانكفاً نجاتي يرفع سرواله إلى خصره ، وهو يغلى غليان
المرجل ، ومن ثم دلف إلى حجرة مخدعه مغمغماً لا يبين ،
وفي أعقابه « عبد الباسط » يضرب الأرض بقدميه ، ويلوح بيده
واسانه كالمدياع الثرثار ، لا ينقطع عن الإنشاد يردد :
حين تقف على السر الذي جشمني السعى إليك في مثل
هذه الساعة الباكورة ، ستجثو ، حتماً ، عند قدمي نادماً تقدم
العذر ، وتطلب الصفح .

واستدار الفتى نجاتى يوايه ظهره ، وتشاغل بسترته يرتديها ،
وهو يلقى كلامه فى استخفاف :
سرك أعرفه .

وبهت « عبد الباسط » يهمهم :
ماذا تعنى ؟

— إفلاس جيبك هو الذى ساقك إلى ولا ريب . . .
أوتحسبني غيبياً ، لا أفهمك ؟
وانفجر « عبد الباسط » يغرب فى ضحك ، وأجاب فى
غير مهل :

طاش فألك وخاب ظنك . . . من الذى فى حاجة إلى
مالك . . . الدنانير ملء جيبى تتجاوز العد ؟
وضرب يده فى جيب سرواله ، يتلاعب بالنقود الفضية ،
لرنيها فى محبسها ، صوت مكبوت .

وجابه نجاتى صديقه يقول :
إذن ما الذى دفعك إلى هنا . . . إن لم يكن ضيق ذات اليد ؟
وغمز « عبد الباسط » بعينه يستطرد :
آه يا عزيزى الصديق أو علمت .
— كفى . . . أنا است فى وضع يسمح لى بالهذر . . .

أماى يوم حافل طويل . . . أوجز القول . . . ماذا تبغى ؟
— عندى لك مفاجأة . . . مفاجأة عظيمة .

وأسكته الفتى نجاتى بإشارة من يده ، وأنشد يقول :
من أين لى بها ؟ . . . أنا لا أتوقع الترقية بعد .

— أو هذه مفاجأة تستحق منى الاهتمام . . . تفهم . . .
لا تكن غيبياً . . . أكرر عليك : إنها لمفاجأة كبيرة . . .
عظيمة . . . مفاجأة الموسم ولا ريب . . . أوعيت ؟
وحملى الفتى نجاتى فى صديقه ، وقد اشتد به التطلع .
فنطق وشيكاً يقول :

هات حديثك . . . خلصنى . . . إنى مصغ لإليك .

وأشرب « عبد الباسط » يطلق قواه فى لهجة مأكرة :
أحقاً أنت تريد أن تسمع لى ؟

فزجر الفتى نجاتى فاقد الحلم :

يا لك من مأفون . . . قليل العقل . . . أولست أحثك

منذ قدمت أن تطلق ما عندك من حديث ؟

— مهلاً يا صديقى . . . لا تكن عجولاً نافذ الصبر .

وأخرج من جيبه لفافة تبغ أشعلها على مهل ، وجابهه

الفتى نجاتى مجنح الساعدين ، ينظر إليه شزراً ويغمغم :

خلصني يا أخى . . . لم أعد قادراً على صبر .
 واستعلى « عبد الباسط » يقول وهو ينفث دخان انفاقته :
 هامت بك نساء الأرض . . . يا دون جوان العصر . .
 لأن صرعى هواك . . . يتردين فى شباك حبك . . . ويا له من
 صيد سمين !

فهمهم فى سهوم :
 النساء . . . يتردين فى شباك حبي . . . صرعى هواى !
 وانقضت فترة صمت ، واستدار نجاتى يقول خشن اللهجة :
 النساء ؟ . . . ما لى وما هن ؟
 — بل لك معهن أمر وأى أمر . . . الغاية إنصاف
 تهواك . . . تحمل لك بين جنبها هوى مشبوباً .
 وهز نجاتى رأسه ، رافعاً حاجبيه ، وطفق يذرع الحجرة
 جيئة وذهاباً ، حائر الخطو ، وقد أظلت جبينه سحابة من تفكير .
 واسترسل « عبد الباسط » يقول فى تباطؤ ، وهو ينسق عباراته :
 سمعت منها ما هزنى . . . حقاً إنها هائمة بك . . . فئذ أن
 اكتحلت عيناها بصورتك لم تعرف للنوم طعماً ولا للراحة من
 مذاق . . . إنها تفضل الموت على فقدك . . . فما قيمة الحياة
 وهى خاوية منك . . . ؟ إنها ، بحسب زعمها ، العواصف

والرعود . . . اليأس والقنوط . . . الجوع والحرمان . . . الجحيم
والنار . . . الضياع والفناء . . . أما في كنفك ، فهي ابتسامة
الصباح الندى . . . هي الحداثات الحالية . . . هي المروج
المخضوضرة . . . هي الأنس . . . هي السلام . . . هي الخلود .
وانقطع « عبد الباسط » عن الإنشاد ، وسما بعينييه ، يرقب
صديقه ، ويتبين أثر الكلام فيه .

والتفت الفتى نجاتي محملاً يسائله :

من تكون « إنصاف » هذه . . . ؟ أنا لا أعرفها .

— ومن الذى يجهل « إنصاف » . . . إنك تضحكى . . .
« إنصاف » النجمة اللامعة . . . صاحبة الصيت العريض . . .
إنها عميدة الراقصات فى ملهى « الأضواء الحمر » .

وانبرى « عبد الباسط » يطرى اصديقه ، ما طبعت عليه
الغانية من وسامة وجمال ، منمقاً فى القول ، مغرقاً فى الوصف .

وأسرع الفتى نجاتي يستخبر :

هل التقيت بها من قبل ؟

— فى الحفل التذكرى الذى شهدته أنت معنا عند صديقنا
« عبد الباقي » منذ أسبوعين . . . إنه الحب . . . الحب العنيف
المتمكن . . . الحب الذى يصيب الفؤاد من أول نظرة . . .

لقد نفذ السهم المريش إلى قلبها وتمكن منه . . . إن الثقب
الذى أحدثه عميق . . . عميق . . . عميق .

وما أتم حديثه ، حتى جلجل جرس الشقة في رنين أرعن...
فتناول الصديق بهامته يهمس :

أو تكون هي . . . ؟ هاجها الوجد ، فشت إليك ؟
وتحير الفتى نجاتي ، يدق الأرض كأن عقرباً لبسته ،
وقال مبهور الأنفاس ، وهو يلوح لصديقه بظهر يده بحثه :
اذهب . . . اذهب تبين الطارق من يكون !

وزايل الصديق حجرة المخدع ، ودلف إلى الردهة متوخياً
باب الشقة الخارجى ، والفتى نجاتي من خلفه ، يتقنى أثره ،
يرقب الباب ، لا يهدأ ولا يستقر ، وقد عمد إلى هندامه يصلح
ما يكون قد تشعث منه ، وأنحى على شاربه يفتله .

وما إن صر الباب يفتح ، حتى مرق منه صديقهما
«عبد الباقي» صاحب الحفل التنكرى ، يقتحم الشقة كثور
هائج ، استحثوه إلى حلبة المصارعة ، فانبعث إلى رحابها من
محبسه الدامس يحول في شرود وجموح ، يعشى النور عينيه ،
فيقشعر بدنه ، ويتشمم الريح بنخيشومه الليل ، يرتصد لئلازاه ،
ويمزق الهواء بقرنيه كأنه يشحذ منهما النصل ، ليقويا على الطعان .

وتراعى له «نجاتي» يحتل من الردهة الصدارة ، كأنما هو
مصارع الثيران الجسور ، ثبت فى مكانه يلوح لخصيمه
بشملة الأرجوانية المقصبة ، فيزيده من هياج وحماس ،
وما لبث «عبد الباقي» أن ركض ينقض عليه ، لقدميه على
الأرض دبیب مسموع ، وفى نبرته تهلل ، ولسانه يردد :

أين هو... اتركوه لى... اتركوه لى أرف إلیه النبأ العظيم !
وسرعان ما هجم علیه ، وأمسك به من كتفيه ، ومثل
يتأمله . . . تبرق عيناه بريق الإعجاب والتعظيم ، ومن ثم
ضمه إلى صدره ، وأقبل على وجنتيه يزحمهما فى تقبيل ثقيل ،
يتغنى بقوله :

أهنيك ... أهنيك ... يا دون جوان العصر ... لقد نلت
الدرة الفريدة ... «إنصاف» ... أميرة المسارح ، وملكة الفن .
وانفتل «عبد الباسط» من مكانه خلف مصراع الباب ،
يظاهر صديقه ، مؤكداً بالإشارة ما تفوه به ، دون أن يسمع
له صوت .

والمعروف عن «عبد الباقي» أنه فتي متزن الطبع ، دمث
الخلق ، وفى اصداقته وفاء الظل ، إلا أنه ينفرد فى الحين بعد
الحين ، من ركود التحفظ ، فيخرج عن تزمته المألوف

يستطيع المداعبة والعبث ، وإن كان هدف الدعابة الأصيل ،
خلا من مخلا نه الأصفياء ، يكن له الإعزاز والإجلال .

وارتعش صوت الفتى نجأتى بقواه :

أأفضت إليك أنت الآخر بسرهما المكنون ؟

فسعل « عبد الباقي » يقول :

وما وجه الغرابة فى ذلك . . . ؟ لمن إذن تريد أن تبوح
بغرامها ، إن لم يكن لصديق مشترك يمكنه بمسعاها الحميد الجمع
بين محبين ، والتوفيق بين قلبين .

وسكت ، يحفف ما تفصد على جبينه من عرق ، ثم تابع :
تود « إنصاف » أن تلقاك الليلة .

ونخرج نجأتى عن صمته ، يهمهم فى دهشة :

الليلة . . . الليلة . . . تلقانى أنا . . . تجتمع بى ؟

-- إنها على انتظار . . . تتحين الأنباء . . . بماذا تريدنى

أن أجيب ؟

وسرعان ما رفع سماعة الهاتف ، وتشاغل بقرصه يديره ،
دون أن يفسح اصديقه مجال تفكير وتدبير ، وانبعث من
الهاتف صوت منغم يقول :

آلو . . . من ؟

— أنا «عبد الباقي» . . . إنصاف ؟ . . . صباح الخير...
 أخبرني ؟ . . . ابن . . . نجاتي ؟ . . . يسعده لقاءك . . .
 عليك تحديد المكان والزمان . . . ماذا . . . ؟ أنت تواقه لسماع
 صوته والتحدث إليه ؟ . . . الآن . . . ؟ تقولين لا صبر لك...
 عظيم . . . أمهليني حتى أنهي إليه الخبر .

ولوح «عبد الباقي» لصديقه بعينه فلم يظفر منه إلا بإيماءات
 التمتع والاعتذار ، وقد لاحت على مخايله علامات التهيب
 والإحجام .

ونحي «عبد الباقي» السماعه جانباً ، وهمس يقول :
 لا تكن هكذا فظ القلب ، غليظ الطباع . . . ترأف
 بها . . . هيا . تحدث إليها .

وأمعن الفتى نجاتي في تمنعه ، وهو يقرض أظفاره ، متوفز
 الإحساس ، فما كان من «عبد الباقي» إلا أن أسلم إليه السماعه ،
 يقول في خفوت :

خذ . . . الأمر يعنيك وحدك . . . الفرصة فرصتك . . .
 أنت وشأنك .

وأذعن الفتى نجاتي إلى الأمر ، وجرى عبر الأثير حديث
 أنيس أنهاء الفتى بتلك العبارات :

أمرك . . . الليلة . . . في الثامنة . . . بملهى الأضواء
الحمر . . . لا . . . لن أتأخر . . . إلى اللقاء .
وأخيراً أهوى الفتى «نجاتى» بالساعة إلى موضعها في رفق ،
وتقاطرت في رأسه الأفكار ، فهام في بيداء الأخيلة والظنون .
أهذر ذلك الذى يعيش فيه أم حقيقة دامغة لا يداخلها
شك أو تغرير ؟

وابتسم الأصدقاء الثلاثة يفرقون على لقاء .
وحين وقف «عبد الباقي» يودعه ، انفرد به ، يربت
ظهره ، قائلاً :

هنيئاً لك صيدك المرىء .
وفي الموعد المتفق عليه ، طرق نجاتى الملهى ، يسعى بين
صديقيه ، يحجل في خطوه كقرد من تلك القردة الدربة ،
استقدمه مروضه ، هاهنا ، ليعرض أفانيه المثيرة ، ويشيع
بين النظارة الأنس والابتهاج .

واعترضهم مضيف من غلمان الملهى ، فتصدى له
«عبد الباقي» يطلب الغانية «إنصاف» عميدة الراقصات ،
فهداهم برأسه الطريق ، ثم تنحى عنهم منصرفاً إلى بعض
الشئون ، يوليها العناية والاهتمام ، فالملهى لم تنتظم حركته ، ولم

يعمره السمار بعد ، فخلا من رواده إلا بعضاً منهم ، تناثروا في أرجائه ، على الموائد ، يشربون ويسمرون .

ومضى ثلاثهم إلى ركن قصي ، فطاعتهم «إنصاف» على خشية وثيرة ، ينفع منها عطر نفاذ ، وتتألق في ثوب رفيف يلتصع فيه نثار براق ، شق عند النحر ، يكشف عن صدر مرمرى ، يثير في النفس بنهديه المشرئين ، كوامن النزعات والأحاسيس . وزم «عبد الباقي» قدميه ، وانحنى في إجلال ، يأخذ يدها الخصبية ، يودعها قبلة التحية والاحترام ، وتبعه «عبد الباسط» فلامست شفتاه كفها العيلة ، ثم صلب عوده يقول ، وفي عباراته رنة زهو وانتصار :

لقد أحضرنا الوديعة لإنفاذاً الأمر ... ها هي ... !

واستدار يسحب الفتى نجاتي ، يقدمه .

ورفعت «إنصاف» حاجبيها ، وسمت إلى «نجاتي» تكسر له عينها ، في إثارة ودلال ، فطارحها النظر في خشية وتردد ، وقد تخشب في وقفة صلبة كأنه دمية من تلك الدمى النحاسية ، يلهو بها في فراغهم الأطفال .

وشق صوتها الصمت ، يقول :

ألا ترغب في الجلوس ؟

واستجاب لها يأخذ له مجلساً ، كأنما هو آلة تحرك
 بلولب ، وتنحنح الصديقان ، يطلبان الإذن فى الانصراف ،
 فهزت الغانية رأسها علامة الرضى والإقرار ، فصدرا إلى مائدة
 عن كئيب ، يتخذانها مرقبة ، يتابعان منها فى مسطرة وتلصص ،
 فصول « الغرامية » التى تجرى أحداثها منهما ، على بضع خطوات :
 وتلدانت الغانية من الفتى « نجاتى » تلاطف كتفه مشبوبة
 الوجدان ، وما لبثت أن طوقته بذرعاها ، وأنفاسها تتلاحق على
 وجنتيه ، تقول :

دعنى أتحنسك . . . أشعر بك . . . أشعر بالنار التى
 أجبجت منى المشاعر ، وألحبت فى قلبى ضرام الحب . . .
 دعنا نحتفل بهذا اللقاء . . . دعنا نشرب نخب حبنا .

وارتدت عنه تصفق .

وأقبل مضيف المشرب .

وتفوهت آمرة :

شاميانيا . . . أفخر ما عندك .

وغرب المضيف يذعن للأمر ، ناشطة خطاه .

وعدلت « أنصاف » بوجهها إلى الفتى « نجاتى » تحدق إليه ؛

ثم هوت على أذنه بفمها ، تماجنه وتناوشه فى غير احتشام ،

فتزيده من هيجة وضرام .

وما كرع الكأس الأولى ، حتى هبط على ذراعها يلتمه
في تقبيل مسعور ، ويهمهم في هوس :

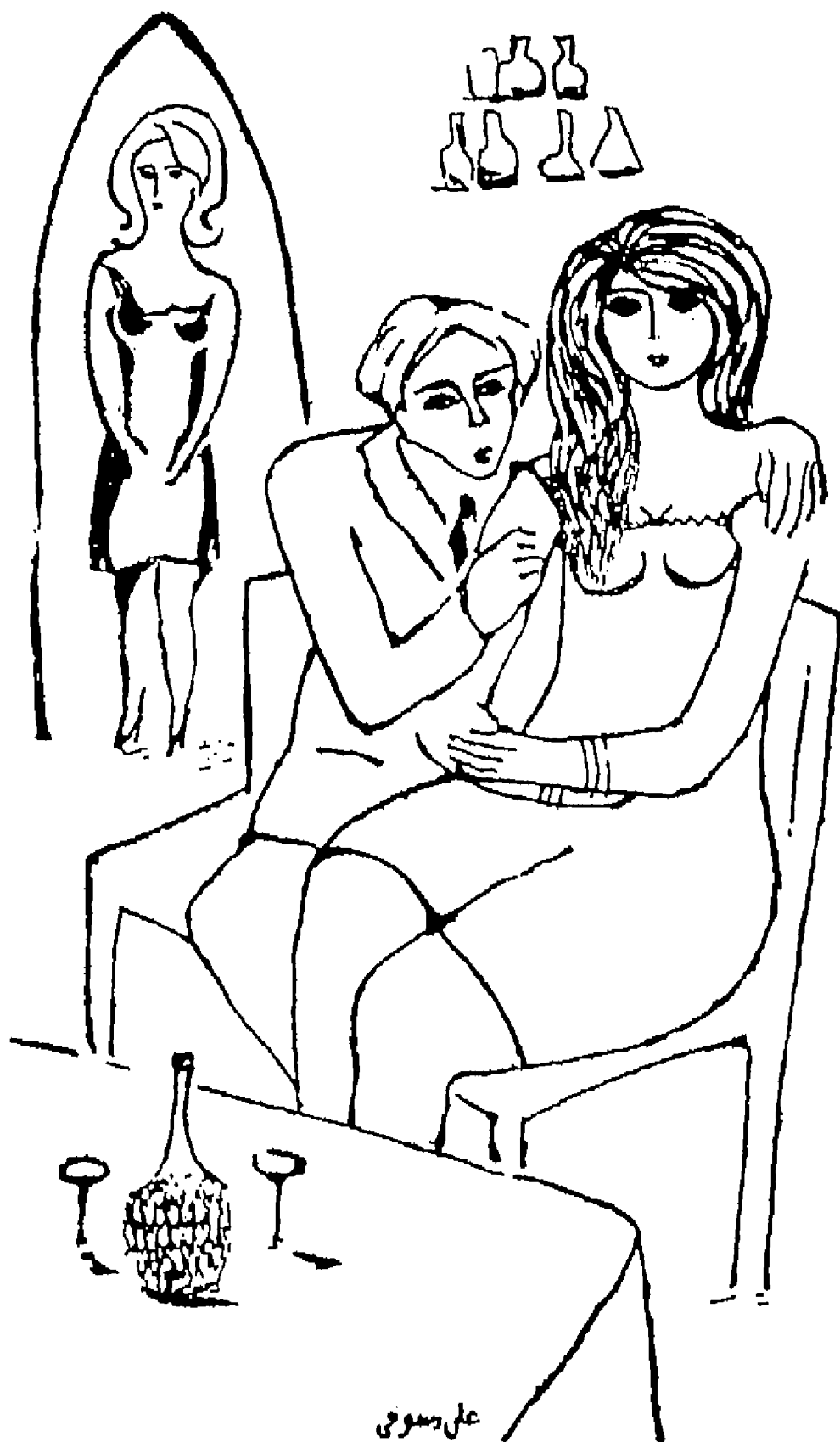
أحبك يا « إنصاف » . . . أعبدك يا « إنصاف » . . .
أنا خادملك يا « إنصاف » . . . عبد من عبيدك . . . ملك
يديك يا « إنصاف » .

وبغته اضطربت الذراع ، كأنها زازال ، فارتجت
أوصاله ، واصطكت أسنانه ، وأحس بدوار يعبث برأسه
وتناهى إلى سمعه صوت الغانية ، ينفجر في زمزمة مخيفة ، يقول :

إن لم تنصرفي من فورك ، حطبت رأسك ، وسويت أنفك
بوجنتيك . . . إنه لى . . . لن يمتلكه غيرى . . . لن أفرط فيه
لأحد . . . أتعين أيتها القطة المنهومة ؟

وأرتج على الفتى ، وتطلع في تشوف يتكشف ، فألقى عن
كثب منه ، حورية من غوانى الملهى ، صارخة الزينة ،
فاحشة الجمال ، ترنو إليه وفي عينيها افتتاح وإعجاب .

وتشابكت نظراتهما هنية ، ومالت غانية الملهى تقول غمازة
بالحاجب :



علي رستوي

أنا صفاء .

ونهض الفتى يزجي لها التحية ، في زحمة من حفاوة
وترحاب ، فعقلت به « إنصاف » تلزمه مقعده ، على حين
انطلقت بعينها إلى تلك المجترئة الجسور ، ترميها بنظرة شذراء .
وأطلقت « صفاء » ضحكة عابثة في غير مبالاة ، ومن ثم
أقبلت على الفتى تميز بخصرها ، وتصعد فيه نظراتها تقول وهي
تمط الكلمات في دلال :

زين الشباب ولا شك . . . رجل ولا كل الرجال .
وحلجتها عميدة الراقصات بنظرة جامدة ، تقول في صوت
جهير ، تتجلى فيه الإمرة والسيطرة :

اغربي من هنا أيتها الحدأة الخطافة :
فهمهمت صفاء في استعلاء وتحد ، وهي تغازل الفتى :
ألست أكمل جمالا من تلك العقاب الهرمة ؟ . . . انظر
إلى . . . تفرج .

وظفقت تدور ولا تفتأ تدور ، عارضة عليه مفاتن جسدها
اللوبي في خلاعة وابتدال ، ثم عمدت إلى ثوبها ترفع حواشيه ،
فتبدي له ساقان مفتولتان في انسياب ونعومة ، هما في جوربهما
المفهاف آية جمال وإبداع ، فغزا الفتى نجاتي تلك المناطق

الخطرة ، بعين شرهة ، وحس متلهب ، وقلب هيمان ، ولم يعد قادراً أن يصرف عنها ناظره .

ورنت من « صفاء » ضحكة مديدة ، فيها طراوة وتميع ، وهمست تقول وهي تبرز مفاتها في خيلاء :

كل ذلك ملك لك . . . طوع بنانك . . . أنتظر الإشارة لأقدمه على مديح الحب هبة خالصة لك .

وانتصبت « إنصاف » تصيح غضوب الصوت ، متنمرة النظرات :

قسماً بالله . . . إن لم تغربي . . . لأخشن وجهك . . .
وأشقن رمسك . . .

ولم يفلح مع « صفاء » تهديد أو وعيد ، ولم تظفر « إنصاف » منها بغير الزراية والإهمال ، وأقبلت على الفتى غير هيابة ، تداعب نخصلة من الشعر نفرت على جبينه ، وما عتمت أن امتدت إليه تدغدغه وتناغيه بجانب الحشمة والتحفظ ، فانشئ يتضحك في استسلام ومراح .

وسرعان ما نشبت بين الغائيتين معركة حامية الوطيس ، تستهدف الحفاظ على الفتى والاستئثار به ، هذه تجذبه وتلك تلقفه ، وهو بينهما كرة حائرة يتناقلها اللاعبان في جسارة

وحماس ، دون مسألة أو فتور .
وبينا الكرة حائرة تضطرب ، بين مد وجزر ، إذا بها تشعر
بسواعد حداد تخاطفتها نائية بها عن ساحة المعركة ، وتصيدت
أذناه همساً يوسوس له :

يا لك من محظوظ . . . تتقاتل في سبيل غرامك غواني
الأرض . . . الحمد لله الذي أنجاك من ضرر وشيك .

ودفع الصديقان الفتى «نجاتي» يحثان الخطو ، فتقدمهما
يغزو الطريق ، على حين أخرج «عبد الباقي» ورقة رفيعة
القدر ، وطفق يلوح بها للغائيتين في مساترة واستخفاء ، ويغمز
لهما غمزات الإطراء والاستحسان .

وتعانقت الغائيتان ، يسودهما وئام وسلام .

وما إن احتوى الطريق الأصدقاء الثلاثة ، حتى نشط الفتى
«نجاتي» يقول في زهو ونخيلاء :

لقد أشفقت على الفتاتين . . . ولكن ماذا أصنع لهما وهما
يتنازعانني ويتقاتلان في سبيل الظفر بي ؟

وسنح على فم الصديقين ابتسام مريب وهما يسألانه
ما سر التنازع فيه :

بالله أخبرنا . . . لا مرية أنك تنطوي على طلاس تجعل
منك آية من آيات الفتنة والإغراء ؟

فاشرأب الفتى ، يكسب قسماته إمارات التيه والفخار، ويقول :

— إنه السيكس أبيل ... ألا تفطنان ؟ ...

وأخذ يضرب كفًا بكف ، وهو يردد في تعجب :

يا للغفلة . . ويا للغباء !

فشهق الصديقان يقولان :

وما هو السيكس أبيل هذا الذى تشدق به ؟ ... بالله

عليك زدنا معرفة أيها الدون جوان التحرير .

— إنها بتعبير آخر.. الجاذبية .. أسمعنا مثلاً بجاذبية الأرض؟

— سمعنا . . ولكن يعوزنا الشرح والفهم .

— الجاذبية . . . هي . . . هي المغناطيس القوى . . يشد

الكائنات إليه في عنف فلا تملك إلا الانجذاب والانقياد . . .

ولذن ، يا صديقى ، فأنا مثل الأرض أحتوى على ما لها من

جاذبية فعالة ومغناطيس قوى . . وما النساء إلا الأجرام المتصاغرة

التي تدور فى فلكى ، وتهاوى صرعى بين يدى .

وتلاقت نظرات الصديقين ، على حين التفت الفتى «نجائى»

إلى الطريق يخطر عليه فى تيه ، وقد تملكته نشوة العزة والنصر ،

وكأن الطريق الدامس الذى يمشى عليه انفرج عن إشراق ،

يبدد وحشة الظلام ، فتبدى وكأنه يختنق بنساء الأرض قاطبة ،

خرجن في موكب حافل مهيب ، يحدقن به ، ويخطبن وده ،
ويلتمسن رضاه ، رافعات الأكف في ضراعة واسترحام .

وتقاصرت من الفتى خطاه ، وأخذ ينقل قدميه على محاذرة
واحتراس ، يظن من يراه أنه يشق سبيله مجهداً ، يعاني من
زحمة قاتلة ، تخنق بحرما الأنفاس .

وما إن احتوته حجرة مخدعه ، حتى مثل قبالة صوان الثياب ،
بعد أن فتح مصراعه ، يفرج عن مرآته الحبيسة . ولما ظهرت
له ، قاربها جياش الأحاسيس يقص عليها ما كان من مغامرة
الليل ، فاشتبك والبلور في مناجاة أنيسة ، غمرها ود وصفاء ،
ولإذا هو يتوسم صنوه وكأنه يتابع وجه الربيع في موكب الأزاهير .
وأوغل النظر يغازل طيفه ، لا يقوى على فراق ، فإذا المرأة
تتحفه بمزيد من طلاقة وإشراق .

وطالت بالفتى وقفته ، حتى شعر بالنعاس يرتق في عينيه ،
والحذر يسرى في أوصاله ، فمال على سريره ، يحتويه سبات
عميق ، ترفرف على أساريه . . . أسارير القرد الآدمي مباهج
الأحلام ، وكان صوته ، في الحين بعد الحين ، ينطلق غليظاً
ناعساً ، يخلط بقوله :

يا نساء الأرض . . . صبراً . . . مهلاً . . . ستنال كل
منكن لمسة من يدي . . . وخلجة من فؤادي . . . وقبله من
في . . . أنا لكن . . . لن أبخل بنفسى عليكن !

نداء

شغف الأستاذ « عنتر المحلاوى » منذ فجر حياته بنزعة
آثرها على غيرها من دوافع ورغاب ، ما فتئت على الرغم من
اشتداد عوده ، وتكامل نمائه ، تعنف به وتلح عليه فى مثابرة
ولإصرار كأنما هى من نفسه شعلة دائمة التجدد موصولة لا اشتعال .
لقد شب صاحبنا طلاعاً إلى الأسفار ، وإن لم يكن قدر له
بعد ، أن يغترب عن موطنه الأصيل مسيرة يوم أو بعض يوم ،
فهو ما زال يبنى النفس كسابق عهده دون أن يحقق فى الأسفار
شيئاً من آماله الرحاب .

إنك إن تفقدت باطن وجدانه استبطنت ذلك الشعور
القوار ، وليد ما غرسه الأستاذ « عبد الغنى السبكى » فى نفسه
الفتية من رغاب ، حين كان صاحبنا يتلقى عنه درس تقويم
البلدان ، عصر الخميس من كل أسبوع ، فى مدرسة بالسيوفية
لا يخطر الآن اسمها لى ببال .

كان الأستاذ « السبكى » فوق كونه أستاذاً للتاريخ ،

رجل فن وفكر ، أديباً ملهماً ، وفناناً ذكياً ، يميّط عن التاريخ
الغوامض والمعميات ، ويجلوه لك في ألواح أخاذه ، وكأن حوادثه
قطع الصلصال تشابكت بين أنامله ، يلينها ويشكلها ويصبها
في قوالب فنية مبدعة تفتنك من روعة وسمو وجلال .

وما ينساب صوته في الفصل يترسل على سمعك في غنته
الصفافية ، حتى يبعث على مطرح وجدانك ، المدائن التاريخية
من سباتها العميق تنفض عنها شملة التقادم والنسيان ، فإذا
الذي كان رفاتاً يصبح في طرفة عين كائناً حياً متكامل النضج ،
فلا تعتم أن تتمثل لك الأطلال والدمن ، قصوراً يغمرها ضياء
وتعمها ضجة وحركة .

ولا يفوتك وأنت تستمع إليه ، أن تعاود العيش مع تلك
الحشود الجامعة ، تشركهم الحياة بما حوته من حلول ومر ،
ولا يسمعك إلا أن تحد السمع ، وأنت بحديثه موصول أنيس .
كذلك كان صاحبنا كلما ضممه الدرس ، فما تنقضي
الحصّة ، حتى يؤوب إلى داره يحتبس في حجرته ، ثم يخرج
إلى المستشرف ، يتكئ بساعديه على حافته ، وقد تملكه سهوم
وهو يسترجع الدرس مع بواكير المساء وهدأة الليل ، وكأن على
عينيه منظراً مكبراً يقرب له البعيد ويدنى ما يهفو إليه ، أو كأن

بإصبعه خاتم سليمان وإذا هو يلفى نفسه متربعا على بساط
الريح ، يسبح في أجواز الفضاء ، شرقاً وغرباً ، دون أن يعوقه
في منطلقه زمان أو مكان .

فلا غرو إذن وقد أصبح صاحبنا رجلاً متكامل البناء ،
صلب العود ، أن يتهافت على مصورات الجغرافية ومصنفات
التاريخ قديمها وحديثها يجمعها إليه كي يروى ظمأه من مائها
النمير ، غير مقتصد في مال وجهد وسعى .

إنه يعيش في الحياة فرداً لا رفيق له إلا تلك المجلدات التي
تحتل من مغناه الرشيقة حجرات ثلاثاً .

يستقبل صاحبنا ضحوة كل يوم ، غائصاً في أحشاء
المكتبات ، يتخير وينتقى ، ناسياً نفسه ، مشغولاً بصفحات
المجلدات كعاشق متيسم قد التحم والكتاب في غزل صامت وديع .
وسرعان ما ذاع صيته بين أهل المكتبات فساروا يخطبون ودّه
ويتنافسون فيه .

ويوماً اتفق لصاحبنا أن قصد حى الحسين في جولة من
جولات صيده اليومي ، فانخرط في شارع الممدود ، حيث
تنزاحم على جانبه الشرقى المكتبات متراسة ، تبدى له كل منها
حلاها وتسفر عن مفاتها وتدعه مقسم النظر بينها في حيرة وافتتان .

وأقبل صاحبنا على واجهات الحوانيت يتسكع أمامها في تشوف وتعرف ، وأدت به خطاه الزاحفة ، إلى مكتبة الشيخ «أحمد المغربي» زعيم تجار الكتب لا في حي الحسين فحسب ، بل في مدينة المعز غير منازع ، فتوقف صاحبنا يحيل الطرف فيما حواه الخانات من نوادر والطف .

فلما لمح « الشيخ المغربي » مقبلا عليه انقطع عن تسابيحہ واشرب بعنقه المكتنز ، وكأنها عنق ثور صدف عن علوفته يرأري بعينيه ، وما عثم أن ثبت نظارته الصدئة المغبرة على أنفه ، وقد انبسطت أسارير وجهه في إشراقة ، وانفرج فمه عن بسمه ملق ، يهدي إلى صاحبنا التحية رافعاً يديه إلى عمامته يسوى طياتها وهو يقول في حماس :

أهلا . . . أهلا بالصدیق الحبيب . . . صباحك صباح
الندی ولا ريب . . . والله يا أستاذ إنك ابن حلال . . . رزقك
يسعى بين يديك . . . عندي اليوم لك بشرى وأى بشرى . . .
درة فريدة لا يفضلك في اقتنائها آخر . . . حسبك أن تضيفها
إلى درك الغوالي . . . كتاب جامع عن الأندلس . . .
موضوعك المفضل . . . تجد فيه شعراً عذبا ونثراً بليغاً . . . وتاريخاً
عجيباً . . . وسيراً . . . وتراجماً . . . وحتى السياسة لها شأن فيه

مرموق . . . خمسة عشر مجلداً . . . كل مجلد منها لؤلؤة نفيسة
ما نظرتها عين من قبل .

وأخذ « الشيخ المغربي » ينشد جملة هذه وهو ينغم من صوته
ويحد النظر في صاحبه ، يتوضح بعين التاجر الدرب ، وقع النبأ
في نفسه . فألقاه مشبوباً يستخفه الشوق ويهفو به الفضول .

على أن صاحبنا أخذ نفسه بالحزم ، وتماسك يقول مرسلًا
ضحكة ناصلة ينشد بها ما يعتلج بين جنبيه :

الأمر يا شيخ المغاربة يتوقف على الثمن .

واستدار الشيخ دون أن يريم مكانه يعبث بين كومات
عفراء من الكتب تسامقت خلفه ، وهو يغمغم :

الثمن أيسر مما تظن . . . انظر . . . تفرج . . . الوقت
فيه متسع .

ومد يسراه إلى صاحبه بجزء من الكتاب الأندلسي المرموق ،
يناوله ويمينه تضرب جلده ضربات خفافاً أثارت حوله غلالة
رقيقة من غبار ، وما لبث أن أخذه سعال ، فقال متحشرج
الصوت محتقن العينين نافر الأوداج :

— هاك الدرة الثمينة . . . تصفحها . . . تجدني ولا غرو

قد صدقتك القول فيما وصفت .

تناول صاحبنا الكتاب يقلبه في دقة وعناية ثم رفع رأسه
يقول والكتاب متثائب بين يديه :

ما ثمنه يا شيخ ؟

— ما تجود به أقبه . . . ليس بيننا مما كسة يا أخى .

— إن ابتغيت حقاً لإتمام الصفقة فعلى بالكلمة الفاصلة .

وتشابك الرجلان في مماكسة عنيدة أطالت من وقفة
صاحبنا ، وأخرجت « الشيخ المغربي » عن وقاره وتحشمه ،
فخاض في حديث متشعب ، يستنكر ما عرض عليه من ثمن ،
مؤكداً قوله بالآيمان المغلظة أنه لو ارتضى لإتمام البيع على هذا
الثن لكان ، وحق السماء ، مغبوناً جدد مغبون .

واشتد الضيق بصاحبه وأعلى الثمن على كره منه ينهى بلحاجة
الشيخ ويقطع حبل ثرثرته الحمقاء .

فجبهه « المغربي » بقوله ويداه بالكتاب مشغولتان تربطانه
كأنه طفل يهدده ويتلطف به :

صدق بالله ... إنها صفقة لي خاسرة ... لقد قبلت إعزازاً
لمنزلك عندى ... لغيرك ما فرطت فيه ولو بذل لي ضعف ما قدرت .
فشكره صاحبه وهو يتسلم الكتاب بأجزائه الخمسة عشر ،
وانطلق بها فسيح الخطى يذف بجناحيه كالطائر وقد ظفر بصيده

يعجل به إلى عشه .

وتصرمت ليال .

وتوالت أيام .

وفجر يوم من أيام الضيف ، شوهد « عنتر المحلاوى » يبرز
إلى المطار ، ويرتقى السلم إلى بطن الطائرة يأخذ مجلسه منشرح
الصدر مشرق الحيا .

ودوت المحركات ، ودارت الطائرة دورة ، وثبت بعدها
وثبة عالية رفعتها دفعة واحدة إلى أجواز الفضاء ، فانسابت في
طيرانها ، تغالب الريح في جرأة وإصرار .

وانسرح صاحبنا في تفكير ، يتحين ساعة يلتحم وأرض
الأندلس الحبيب في مصافحة جياشة ، ولقاء منشود .
كم من ليلة قضها مسهداً بصحبة الكتاب الأندلسى ،
تختلج في نفسه شتى الأخييلة والأحاسيس .

شد ما تاقته نفسه إلى أن يستجلى ما هنالك من حضارة
أينعت ، تتحدى أحداث الزمن وتصاريف الأيام .
ويدوى في الطائرة صوت القائد يبين للراكبين ، أن الطائرة
تحلق الآن فوق الهدف المأمول .

ويضطرب صاحبنا في جلسته ، ويميل على طاق الطائرة يلتقى

بأنظاره في الفضاء، وكأنه أدلى بشخص يتصيد به ضالته من أعماق الهواء.
وتطالعه الأندلس في ثوب مفوف كغادة متأنقة تجتذبه من
بهاء ورواء .

وتهبط الطائرة .

ويغادرها صاحبنا وثاب الخطى وكأنما هو نحلة ناشطة ،
دائبة الحركة والدوران .

بيد أن غادة اليوم غير غادته الشرقية التي ألفها وأنس بها
على مد الليالي وكر الأيام ، تسعده بسمرها الطلي ، وتشدو له
شدوها الحنون .

ما للغادة اليوم تلوى لسانها ، تغمغم وتجمع في رطانة
سقيمة لم يالفها لغة حديث بينهما من قبل ؟
أين هي من ذلك اللسان المستقيم الذي طالما أسكره بعذوبة
تعبيره وترنيمة أنغامه ؟

ما للغادة نصت عنها ثيابها الفضفاضة يحليها وشى كوشى
الربيع ، واكتست بديلاً عنها لبوساً أعجمياً ، وإن كان في
مظهره القشيب ، ما فتي يحتفظ بفضلة ناصلة من طراز شرق
رشيق ، فالمغاني تتوضح لناظره على امتداد الطريق متحشمة
تتستر خلف شملة من أسوار تحيط بها وتصونها كأنها أحراس

ينفذ منها هو فتحبيه حديقة حالية ، تتوسطها فوارة مرمرية
ينبجس منها الماء، وقد تحلقت عليها الأشجار والورود ، مختلفة
الألوان والشكول ، وعلى جنبات الحديقة قبوات تهدى الخطى
إلى الحجر والحدور .

رباه ! أتكون الطائفة قد سخرت منه وغررت به فأضله السبيل ؟
إن عينه حيرى بما تراه من آثار مطموسة المعالم حائلة
اللون لا تلائم ما تمثله لها في كتابه من عظمة وجلال .

لم يكن يدور في خلدته أن غادته التي صافته زمناً ستقدم له في
يومه كأساً غير التي نهل منها فأذكت روحه .

لقد غدت امرأة صليقة القلب ، جامدة الملامح ، وقد
تألمت على التراث الذى ورثته لم ترع إلا ولا ذمة ، بل انبعثت
تركل وتبطش في طيش جنونى وكأنها إعصار خراب وتدمير .

وقاده تنقله إلى قرطبة الخالدة حاضرة الأمويين ، ودرة
تاجهم الأغر .

ماذا ! ! إنها ما برحت على عهدا ، تردد من صدر
مقرور ، أنفاس أمس الغارب ، كشيخ فان طحنته الأيام
وهدت عزمه العلل ، فأمسك عن المضى ، ينكمش على تراثه
يحافظ عليه ما أمكنه الحفاظ فى يأس وقنوط .

أيهرب من غادته ، ويقفل راجعاً إلى كتابه يحتفى عنده
ويأنس به .

ولم تدم حيرته ، فقد حثه الدليل في زيارة إلى المسجد . . .
مسجد قرطبة التليد .

هرع يطلبه وقد استبشر باللقاء .
دخله مشبوب النفس نشوان الفؤاد .

وما كاد يلتقى بالمحراب حتى ألفاه حبساً خلف نطاق من
سياج وقضبان ، يطالعه من وراء محبسه ، متطامن الهامة ، ذليل
القسمات ، على الرغم من طرائف النقوش التي تزين جبينه في
خطوط موشاة ، تارة تستقيم وأخرى تتشابك وتلتحم لتتنافر
وتشط دون أن تفقد وحدتها الفنية الرائعة .

إليه أيها المحراب . . . إن صمتك أنساني ما حملت من
تحيات وأشواق أنثرها في حضرتك آيات مودة وحب وإكبار .
لأنها من أخذان لك في قاهرة المعز ودت لو تم بينها وبينك
تلاق واجتماع على صعيد موحد . . .

لماذا لا تسعى إليها ، تشهدهم تلك البردة الموشاة التي
تسدل على منكبيك تتحلى بها في تألق وبهاء .
سوف يحتفون بك لا مرية ، وسوف يطيب لك إن أنت

قررت الرحيل المكث والمقام .

أراك تختلج اختلاجة تألم وضيق واستنكار .

إني أراك ذليل الحال خلف السياج والقضبان .

أأصبحت مجرد طرفة من طرف الفن تحج الجموع الحاشدة

إليه مسلاة وملهاة ؟

فيم صمتك بحق السماء ؟

ألم يبق فيك بقية من حمية الشباب ؟

تكلم . . . هداك الله ورعاك .

وهنا مزقت سكون التناجى ، رنات ناقوس ، تشابكت بها

ترنيمات أرغن ، تصاحبها ترتيبات وأناشيد ، فجمد صاحبنا في

وقفته ، وتملكته رعدة ، واضطربت شفثاه ، وغامت عيناه ،

وعلى حين بغتة ، انبثق صوته يدوى بتكبيرة الصلاة ، فتناثرت

الكلمات في رحاب المسجد قوية الجرس ، وكأنها مع صدى

صوته أصوات المصلين من أهل الأندلس في عصور سواف ،

بعثت من مراقدها تردد في إيقاع موحد : الله أكبر ، فما لبث

صوته أن تعاظم وتضخم ، وإذا هو ينخر راکعاً يتشبث بالسياج

والقضبان الضاربة نطاقها حول المحراب ، يهزها في عنف ، وكأنه

يبغى أن يقتلعها ، يمهّد للمحراب الحبيس سبيل تحرر وفكاك .

العقبة

جلس السائق « مدبولي » إلى عجلة القيادة من سيارته العجوز ، يجريها على الطريق العريض ، إذ يتحوى أمامه على مد البصر كالرقطاء في انسيابها تنكمش وتنبسط ، فلا يملك هو إلا أن يروض سيارته ، مطاوعاً في حركاته ليات ذلك الطريق ، وعلى جانبيه ترمى الحقول شاسعة تكسوها خضرة ونضرة.

كان هذا الصباح على غير المألوف من عاداته ، جهم السحنة ، عاقد الجبين ، يضرب في صمت وسهوم ، وبين شفثيه لفاقة تبغ رخيصة ، يجذب منها الأنفاس وكأن دخانها المتصاعد هو أنفاسه المكروبة ، ينفثها من صدره ، تسرية عن فؤاده الكلم.

كيف لا وقد ألفاه الصباح الندي ، مقتعداً سريره الخشبي من حجرته المعتمة ، وقد سهر عامة الليل ، تتوسد حضنه المكتنز صغيرته « مبروكة » صريعة الحمى ، تسرى في أوصالها رعدة ، فكأنها عصفور يدف بجناحيه مبتغياً على ضعفه الفكاك والانطلاق ، وعن كذب منه زوجه وقد تداخلت في خمارها الأسود

وجلبابها السابغ كقطعة من الليل ، لبثت حيث هي جامدة
لا تحسن من أمرها إلا تنهد الاستسلام ، وفي مآقيها تتحير الدموع .
كان ذلك المشهد يتخايل أمام عينيه وقد جمعت السيارة
جمحة أفقدتها الاتزان ، فشدد « مدبولي » قبضته على عجلة
القيادة ، وهو يفيق من غفوته ، نائياً بالسيارة عن مخاطر
الطريق ، وقد ثارت ثائرتة ، فانبعث يسب ويلعن ، وما تمالك
وهو في قمة غضبه إلا أن يبصق بملء فيه ، بصقة عريضة ،
ينعى على الطريق اختلاله .

وسرعان ما أبلجم سيارته يحد من سرعتها ، فما لبثت أن
تهادت بمجهدة تتعثر خطاها بتموجات الطريق ، ما تلفظها فجوة
حتى تتلقاها أخرى ، وكأن الطريق يستبين له ، وجه عكر
تفشت في نواحيه الغضون والتجاعيد .

حقاً إن الطريق ليفتقر إلى يد حاسمة تتولاه وتحد من
اضطرابه وفوضاه . إنه وهو على حاله هذه ، يشكل على لقمة
العيش ، ولا ريب ، الخطر كل الخطر .

ما أحوج « مدبولي » إلى سبيل هين ميسور ، يتلقى سيارته
ودیعة غالية يصونها ويحرص عليها ، ضامناً له الرزق في سماحة وأمان .
لقد اعتاد « مدبولي » أن يصاحب « الطريق العريض »

مع مطلع كل فجر ، بعد أن يؤدي الصلاة حاضرة ، فيخرج على التربة ينعش سيارته بما يسكبه عليها من الماء ، ثم يعرض خدماته على المسافرين عند الموقف الكبير ، مرتضياً ما يقدم إليه من أجر دون مما كسة ونزاع .
فليسر على بركة الله وهديه .

لقد يسر الله رزقه فازدهرت تجارته ، وعمه خير ، وما عثم أن استبانت على السيارة العجوز مخايل تلك النعمة وذلك الخير ، فنضت عنها أسماها واكتست بردة الشباب النضر ، وقد رصعت جوانبها حكم وأمثال تزيدها نصرة وبهاء .

وأصبح « مدبولي » يزهو بسيارته ، يسوسها في رفق ويحافظ عليها حفظ الأم لوليدها ، فلا يفتأ يستشف وجه الطريق في تيقظ وانتباه حتى أضحي به خبيراً وبخباياه عليمًا ، كقارئ كف يطالع من بين تعاريج الخطوط كوامن الأسرار في تمكن واقتدار .
إن ما يخيفه من الطريق فجوة تتصل بها عقبة متورمة كسرطان خبيث يتوعد الغافل بخطر محقق وهلك وشيك ، فالطريق يخفيها في حضنه عند موقعه المرتفع حتى لتكاد تخطئها الأنظار .
لأنها في تنفخها وانبعاجها تنكر مرأى السيارات ماضية إلى وجهتها تبتلع الطريق وتطويه أشد ما تكون حيوية ونشاطاً دون

أن تتصيد إحداها ، تصرعها بما تنفثه على الطريق من سم زعاف .
لا غرو أن يحمل السائق « مدبولي » في وليجة نفسه لهذه
الخدبة المتورمة حقدًا دفينًا ، ولا غرو أن ينعقد بينه وبينها صراع ،
حتى أصبحت شغله الشاغل في ذهاب وإياب ، لا يفتأ يلتزم
الحيطه والحذر مجنداً في معركته اليومية حواسه جمعاء : العين منه
ثاقبة ترصد الطريق في تبصر ، واليد قابضة على عجلة القيادة
في إحكام توجه السيارة وجهة أمن وسلام ، والقدم آناً تحت
السيارة على إسراع ، وآناً تبطن بها في تحرز واحتراس .
إنه كلما تخطاها حدجها في استعلاء وكأنه يهمس لها في
سخرية : لن تنالني بسوء أيتها الخدبة الشوهاء ، ويخالها تبسم له
في فتور متوعدة إياه في هدوء دون أن تثير حولها الظن والارتياح .
لا ريب أنها باقية بقاء الطريق ، فجدورها متأصلة في
أحشائه يتعدران يسبر لها غور ، وأن يصل إليها مبضع جراح .
ومر الوقت وشيكاً والسيارة ماضية في مسيرها تتعثر ،
و « مدبولي » يتوسم الطريق مبهتس الملامح ، يواصل التفكير
في مرض صغيرته ، وقد شعر بها تشبث به عندما نحاها إلى
زوجته ، وكأن لمسات يديها البضتين جمرات تحرق صدره ،
فلا يلبث أن يزداد من عبوس وجهامة ، يجتر أحزانه ، ويقاوم

خدرًا انساب في أوصاله يكاد يطبق أجفانه .

وفيما هو كذلك ، إذا بالسيارة تصدم صدمة قوية ترفعها ثم تخفضها لتتحرف بها في عنف على حافة الطريق ، فتتقلص في مكانها ، ومن خيشومها يتصاعد بخار موصول هو زفرات تعسر لما نابها من توقف وانكسار .

ويزايل « مدبولي » مكانه من القيادة ، يتفقد السيارة ناثر النفس ، زائغ البصر ، مهوش الحركة ، لا يثبت على حال ، فتطالعه السيارة مهیضة الجناح ، وقد جمده محركها يلفظ في عناء آخر الأنفاس .

ولا يتمالك « مدبولي » إلا أن يرتجى عليها بجرمه الثقيل يحتضنها وقد سرت فيه رعدة عارمة ، وكأن نهاره انقلب ليلا ، وكأنه على سريريه الخشبي من حجرته المعتمة ، وعلى صدره ترقد صغيرته « مبروكة » ترجف وتهللي من وقدة الحمى ، وقد بسط لها صدره كله ملاذ أمن وسلام .

وينخرط « مدبولي » ينشج في حرقة وهو يبصق ويبصق على الحدبة المتورمة ، على حين انبعث قدمه تدق رأسها في عنف واهتياج ، وكأن الحدبة المتورمة في ثناؤها ثغر يبتسم له ابتسامة زهو وانتصار .

ريحان القبور

يطالعنا يوم الوقفة ، من كل عام ، فى ضجة ما بعدها
ضجة ، متجدد الشباب ، مشرق الحيا ، وقد نضا شملة السكون
الحامل ، واستبدل بها لبوس الحيوية واليقظة .

ما إن يهل علينا ، مع النهار الوليد ، حتى نهتف من الأعماق
متهللين لمقدمه ، وفق ما رسمه من شواغل ، وما سنه من نواميس .
وإني أتمثله ، فى موكبه العظيم ، أميراً من هؤلاء الأمراء
المستبدلين ، انبعث يفرض علينا سلطانه فى إصرار وعناد .

وما أسرع أن ينتهب ما بأيدينا من المال ، فإذا المتاجر
تستنزف قوانا فى مشتريات يعدها الأمير من لوازمه ، دون أن
تأخذ بنا ذرة إشفاق .

والويل كل الويل لمن يعصى أمر الأمير أو يخرج عن
طاعته ، فلا يعتم ، أن ينقلب اليوم البهيج ، مناحة ، يسكب
فيها أهل المارق ، دموع الأسى والتذمر والإنكار .

مساكين هؤلاء المتزوجون .

أحمد الله ، أنى ظللت فى مأمن من المرأة ومنأى ،

أعيش ، كما تعيش القواقع في تفرد ، أنعم في مثابتي بأنس وصفاء .
 مخبول هو من نعت النساء بصفات الضعف ، والدعة ، واللين .
 لهن ، أعزك الله ، نمرات متمردات ، دائمات الشكاية
 والتأفف ، همهن الأكبر في يومهن الأطول أظفارهن .

تأخذهن ، إن اجتمعن أو تفردن ، عاكفات يقلمن
 الأظفار ، على رأس المحك الدقيق ، كما يشحذ السنان الدرب ،
 نصل السكين ، على حجر المسن العريض .

لهن دائبات العناية بأظفارهن كالجندی الحصيف ،
 يظل عاكفاً على سلاحه ، يهيئه ليلى به ، دعوة الداعي ،
 متى نفخ في البوق ليعلن التطاعن والقتال .

وإنك إن تساءلت لماذا يؤثرن الخضاب الأحمر يطلين به
 شفاههن ، دون سواه من ألوان الزواق ، أجبنك في براءة الدثب
 من دم ابن يعقوب ، والدهشة آخذة بهن ، إنه أداة زينة
 وتجميل . . . ليس إلا .

لا . . . لا تسمع هن .

لهن يموهن عليك .

وما اللون الأحمر إلا رمز لدم الفريسة المسفوح ، يندين به

شفاهن الظامثة إلى فتك وانهاش .

مساكين هؤلاء الآباء .

يحسبون أنهم خالدون ، متى نجم لهم في الحياة نبت .

يظنون ، وما أسخف ما يظنون ، أنهم في أولادهم يعيشون ،

وفي أولاد أولادهم ، هم مستمرين متجددون .

أليست هذه الفروع ، وتلك الجزئيات ، من عنصرهم

الأصيل ، يتوارثون عنهم خصائصه المميزة ، جيلا بعد جيل .

هذا هو الخلود ، بحسب زعمهم ، عين الخلود .

يا لهم من جناء رعايد ، يتهيئون الموت وجلة قلوبهم ،

فيخلقون هذا الوهم ، يتعزون به عن الموت ، ويقصون من

دنياهم أشباح الفناء .

الموت حقيقة الحياة الكبرى ، والفناء طبيعة الوجود الراسخة ،

أيها الجاهلون .

أحمد الله ، أنى ما زلت قوقعة ، لم ينبت من صلبى عود أى عود .

وقانا الله الذرية ، صالحة أو طالحة ، فليست هى إلا شر

الحياة ، ووجهها المكفهر العبوس .

أليست هى بطونا خاوية تطلب الشبع والامتلاء ؟

أليست هى أجساماً غارية تطلب الدفء والغطاء ؟

أليست هي ، بعد ذلك ، بحاجة إلى تربية وتنمية وإلى
صقل وإعداد ؟

أليس كل هذا نفقات تلو نفقات تنوء بها الكواهل وتندى
لها الجباه ؟

مساكين هؤلاء الآباء بما يرهقهم به يوم الوقفة من مطالب
مسرفة تسلمهم إلى إعياء وضنك .

وعلى الرغم من حياة الاقتصاد التي أحياها ، وأنا فرد أعزل ،
أراني ، في هذا اليوم ، وقد خرجت نفسي عن طاعتي ، كدابة
حرون تأبى السير في طريقها المرسوم .

لا غرو إذن ، أن ألتق ذلك اليوم ، يوم الوقفة ، متكرهاً ،
أستنكر منه تطاوله على نقودي ، يبعثر في السوق ، خلال
ساعة ، ما اقتصدته في شهور .

وتشهدني القرافة ، مع الأصيل ، أسلك دروبها العفراء ،
محتضناً « فطائر الرحمة » يطويها دثار من ورق شفاف ، كأنها
الوليد توسد حضن أمه ، مدرجاً في لفائف من حرير ، ومن
خلني رجل بطين ، قصير القامة ، مكتنز العود ، يتقنى أثرى ،
متلاحق الخطو ، وقد توج رأسه سبط الفاكهة والتمر ، على
حين تدلت من يده طاقات الريحان ، يحسبه الناظر إليه ،



ثوراً تهادى بين القبور : له من سحنته لغد يترجرج على صدره
العريض ، كلما تعثرت قدماه بفجوات الطريق ، وله من
عوده بدانة مفرطة ، ومن مشيه تخطر متزن وثيد ، وله من عينيه
حدقتان تدوران في محجريهما ، في تلصص ، وعلى شفثيه ،
يتحلب ريقه كما يتسائل لعاب الثور لمراى أعواد البرسيم النضير .
وما إن يحتوينى والرجل فناء المدفن ، حتى يحاصرني حشد
العفاة ، منبسطة سواعدهم ، يستجدون العطايا في هرج وهياج
كأنهم قطع الذئاب الجائعة ، تحلقت على الفريسة ، تعوى
عواءها الكثيب .

وسرعان ما أَدفع إليهم بما جلبته من فطائر ، وفاكهة ،
وتمر ، حيناً أحاسنهم ، وحيناً أخاشنهم ، لا يفوتنى أن أعمل
فيهم قبضتى ، محتفظاً لقدمى فى المعركة بالنصيب الأوفر ،
لأفك عنى حصار ذلك الطوق العصيب .

ولا تسأل عن الرجل الثور ، وسط هذا الهرج والمرج ،
فإن تفقدته عيناك ، ألفيته منكمشاً فى ركن من الجبانة قصى ،
خلص إليه من المعركة ، كما تخلص الشعرة من العجين ، وقد
أطبق فكيه على فطيرة سمينة ، اختلسها فى غفلة منى ، يلتهمها
هانئاً ، وبين القضمة والقضمة ، يعتصر ليمونة حلوة بين

شفتيه ، يرتشف رضا بها الشهى ، يرطب به حلقه الغصان .
 فإذا انفض الجمع ، انصرفت إلى قبور الراحلين الأعزاء ،
 أنثر عليها أعواد الريحان ، وعن كئيب يتربع قارئ ضريع ،
 يرتل آيات الله المحكمات ، أنا يتعوج ذات اليمين وذات الشمال ،
 وأنا يتقاصر ويشرئب ، على إيقاع صوته الجهير ، فأجلس
 إليه أستمع ، مطأطئ الرأس مسبل العينين ، أتمايل فى جلستى
 تمايل مستمع طروب .

ولا ألبث أن أطير إلى عالم الخيال ، فيرتدبى الزمن إلى عهد
 نحلا ، أعيش فيه أنسه وعبوسه ، وأنا ما زلت فى مكانى قاب
 قوسين من اللحد اللحد الذى سوف يضمنى حتماً إليه .
 وكأنى أحس بالقبور تنتفض انتفاضة الحيوية ، تخلع عنها
 العفاء والصمت ، وتندفع فى حركة وحديث ، وكأن شريان
 الحياة لم ينقطع عنها ، فهى تسعى بين يديّ سالف سعيها ،
 وكأن ظلام الفناء لم يغيبها عن الوعي ، طرفة عين .

يا للذاكرة من مستودع عجيب !

إن آلات الحفظ والتسجيل ، فى عصرنا الحديث ، إذا
 قورنت بتلك الذاكرة ، تصاغرت وعجزت أن تكون مثلها فى
 حفظ ما استودعت من العطب والضياع .

إن ودائع الذاكرة ، تظل خالدة في معناها وجوهرها ،
تساير الزمن وتصابره . . .

ورفعت رأسى أمسح دمة حزن فرت من عيني .
واستقبلت العراء على غير عمد ، فألفيتني أصافح وجوهاً
جاءت إلى المقابر مثلى ، تحيي موتاهها من الأعزاء الراحلين .
وتعثرت نظراتي في تطوافها بقبر ، هين المنظر ، قائم وحده ،
بين المدافن المشيدة ، لا سقف يظله ، ولا جدار يحميه ، وقد
تأكلت زواياه ، وتهورت جوانبه ، وتهاوى شاهداه ، فلم يبق
منه ، إلا أنقاض أحجار مثلثة ، كأنها أسنان نخرة صفر ،
انفرج عنها فم محطوم .

لم يكن حول القبر سوى كلب أسود شريد ، سعى يحوم
حول الحدث ، ويتشمم جداره ، وقد امتد خرطومہ البليل إلى
فجوات القبر يتفقدھا فی هوس .

وما عثم أن اطمأن إلى إحداها ، فكف عن سعيه
المحوم ، واقتعدھا يقضى حاجته آمناً ، وقد تقوس ظهره ،
وتقلصت عضلاته ، واشرب رأسه يرأى بعينه ، يصافح خطرات
النسيم دون أن يحس زاجراً من يد قوية ، أو صوت غضوب .
وهزنى ما رأيت هزة ، زلزلت كياني ، فقفزت أعدو ثائراً ،

أتوعد الكلب في صوت جهورى ، وتناولت حجراً رجمته به ،
فأصابه في رأسه ، بين عينيه ، فانتصب يعدو هارباً ، يعوى
عواء التوجع والغوث ، وقد أدلى أذنيه ، وضم ذيله بين فخذيه .
ومثلت أمام القبر ، ووقفت في صمت أتملاه ، ودارت في
رأسى خواطر .

حقاً ما أحزنه من قبر بين القبور .
أين هو من هذه الأجداث التى تزينها الورود والرياحين ،
وتؤنسها بالتعهد والزيارة : الزوجة الوفية ، والذرية الصالحة .
أكذلك مصير القبور حين تفقد تعهد الأهل والأقربين ؟
يا لله ! ماذا أقول ؟

الزوجة . . . الذرية . . .
البنون . . . البنات . . .
وتراجعت عن القبر مشئت الفكرة . . . تائه النظرة . . .
وقد عرثنى قشعريرة ، واستبدت بى رهبة ، وقفلت إلى الدروب
المتربة ، أفسح من خطاى ، لأطلب الطريق الممدود بمنأى عن
مثابة الموت والعفاء ، أكاد أصرخ : لا أريد أن أموت . . .
أريد الخلود . . . الخلود . . . كل الخلود !

خمسة قروش

إلى صغيرتي ع. ر. مع الحب والإعزاز

هي طفلة لم تتخط بعد عهد التفتح والازدهار ، ضمن عليها
القدر برفيق تأنس به ، فظلت وحيدة أبويها تعيش في كنفهما
عيشة العزلة والانفراد .

دنياها التي ألفتها : عم كسيح قيد الشلل أوصاله ،
لا مشغلة له في يومه الأطول إلا الشكاية والسخط ، وعمه اغتالت
المنية عائلها فخلت لطفلة أخيها ترعاها في صرامة وحزم ،
فما لبثت أن فترت صلوات الطفلة بعمتها لما تلقاه على يديها من
شدة وعنت .

وكانت الطفلة تلتقي في الحين بعد الحين خالة لها عقيماً لم
تكتحل عيناها بمولود بعد ، فصبرت على حرمانها تمنى النفس
حتى تبدت في سمائها تلك الطفلة ، فحومت حولها تحويم الحمام
على فرخه الصغير .

لم يكن مستغرباً من الحالة أن تبسط لابنة أختها جناح

حنانها كلما قدمت لزيارتها ، ولم يكن من المستغرب من الطفلة أن تسعى إلى نخالتها تطلب عندها الأنس والسلوى ، فاجمعتها جلسة مشتركة إلا ارتدت بالحالة السن فتبدو وكأنها صبية لها ما للصغار من نخصال ، وفيها ما فيهم من مرح ونزق .

واستقر في ذهن الطفلة أن نخالتها ما هي إلا خدين تلعب معه وتسمر ، إذ كان من المحظور عليها أن تشارك لداتها من صغار الحى الانطلاق والمراح ، فقد أزعج والدها أن ينشئها تنشئة طابعها جد واتزان .

لا غرو أن تنبت بين الحالة وبنت أختها أواصر ألفة سرعان ما تطورت فأضحت حباً عارماً يحمله كلاهما لصاحبه دون مواربة أو خفاء .

واعتادت الطفلة كلما باعدت شواغل الحياة بينها وبين نخالتها أن تجلس إلى « الهاتف » تناجيها في ثرثرة موصولة ، وتنمق لها لوحاً يستوعب كل ما وقع لها من حوادث ومغامرات ، فتظفر من نخالتها على متن الأثير بالمديح والإطراء في حديث مؤنس ترصعه نكات ودعابات .

ويوماً أسر إليها الهاتف نبأ أزعجها .

ذلك أن نخالتها حليقة الفراش مقيدة إليه بأمر الطبيب .

وفى حجرة المريضة وقفت الطفلة على سر المرض ، وهى
تنصت إلى صوت خالتها يترنم بقولها ، وقد التمع وجهها من
بشاشة وإشراق :

عما قريب يكون لك رفيق تمرحين معه وتلعبين .

وانطلقت الطفلة تسأل وقد أثار قول خالتها فضولها :

متى يكون ذلك . . . أفى غد أظفر به ؟

— لا يا حبيبتي . . . بعد بضعة أشهر .

— أيمكننى أن أراه ؟

— لم يحن الوقت بعد .

— وأين هو الآن ؟

فأومأت الخالة إلى جنبها تقول وقد التمت عيناها وتورد

خداها من اعتزاز وزهو :

هنا .

وامتدت يد الطفلة إلى خالتها تتحسسها فى رفق وتهيب .

وابتسمت الخالة تسألها :

ماذا تريد أن يكون المولود . . . بنتاً أم غلاماً ؟

— بنتاً . . . نعم بنتاً .

واتفقا فيما بينهما على نوع المولود دون أن تبدى الخالة أى

تمنع أو اعتراض .

فليكن ما يكون . . . المهم أن تظفر الحامل بمولود تسعد به
وتستبشر .

ويوماً دلفت الطفلة إلى خالتها تحمل بين يديها صرة
صغيرة ، وتقربها من سرير الحالة تفك عقدها وهي تشقشق بقولها :
هاك بعض الملابس . . . خطتها بيدي .

وأنشأت تعرض على خالتها مزقاً هينة لا تصلح لبوساً
إلا للعرائس والدمى .

لم تمالك الحالة إلا أن تحتضن الطفلة تطبع على خدها قبلة حافلة
ولسانها لا ينفك يرطب مسامع الطفلة بكلمات التشجيع والإعجاب .
وتصرمت أيام .

وجاءتها الطفلة تزورها على المألوف ، وما استقرت بجانب
خالتها على السرير ، حتى دست يدها في يدها تقول :
هاك خمسة قروش . . . هدية للمولود .

فابتسمت الحالة ابتسامة ساطعة ، ثم احتضنت الطفلة
تقبلها في شوق مزيد .

وقهقهت الأقدار وهي تضرم النار في ذلك الحلم السعيد ،
فما نشب أن تنثر رماده في رحاب الفضاء .

أجهضت الحالة .
وتبين للطفلة من أمشاج الأحاديث أن أمنيها خنقت في

مهدّها ، وقد غيبتها الأقدار في عالم بعيد المنال . . . في جب
سحيق تسد فوهته جنادل صماء .

ومنذ ذلك الحين حبست الطفلة لسانها لا تجريه بكري
ذلك الأمل المفقود .

وطويت أسابيع .

وكانت الطفلة جالسة تثرثر لحالتها ثرثرتها الأنيسة .

وعلى حين بغتة كفت عن الكلام ، وواجهت خالتها
تهمس لها بما كان يشغل بالها ويمض خاطرها :

أين خمسة القروش . . . لم يعد لك بها حاجة !

وأحست الخالة بطعنة تنفذ في أعماقها ، لكنها كظمت
ألمها ، وقامت متثاقلة إلى حجرة نومها ، تستخرج من صوان
الملابس صرة المزق وكانت النقود بينها ، فأخذتها وعادت إلى
الطفلة وهي تجتلب لقمها بسمه متكلفة ، وتقول :

هاك النقود يا حبيبتي . . . تستطيعين أن تبتاعى بها
ما ترغبين فيه من حلوى .

ووثبت الطفلة إلى الباب خارجة وهي تتمثل ما سيقع عليه
اختيارها لتشرّيه ، على حين انكفأت الخالة على وسادتها تلوذ
بها لتخفى في طياتها عيناً تحيرت فيها الدموع .

ساعة راحة

استلقت « سنية » تتقيل بعد ما أصابته من غداء دسم ،
واستوى زوجها على مقعده الوثير وقد تحرر من رباط الرقبة ،
واستبدل بحدائه خف البيت المريح ، وما إن اطمأن في مجلسه
على المقعد الرحيب ، حتى حانت منه التفاتة إلى جريدته ،
فنشرها بين يديه ، وأخذ ينقل نظراته بين سطورها يتلقط الأنباء ،
فاتر الهمة ، متخاذل الأوصال ، وقد تدلت من فمه لفافة تبغ
يتشكل دخانها دوائر وحلقات .

وأظل الزوجين صمت موصول ، وكلما قلب « عزيز »
صحائف الجريدة خشخشت تشوب رونق السكون .

وكانت أسجاف النوافذ مسدلة تحجب وهج النهار ،
فأضفت على الحجرة جواً من رخاوة وهدوء ، وغازل عينييه
طائف الكرى ، فما عثم أن استجاب له في رضا واستسلام .

ومضت الدقائق يأخذ بعضها بتلابيب بعض ، فتجمعت في
حساب الزمن ساعة ، وما انفك الزوج غائباً عن العالم المحسوس

ينبعث منه غطيط ملحوظ .

وتتابعت حشرجة الزوج تحاصر مخدع الزوجة ، وتنفر عنها لليلد النعاس ، فاعتدلت تبصر زوجها ما فئى على كرسيه ممدداً ، والجريدة تتدلى من يديه حتى تلامس الأرض ، وخصلة شعره تتشعث على جبهته ، وفه منفرج عن ذلك الغطيط المسموع ، فاستشعرت بعض الضيق ، وجات نظراتها فى عرض الحجرة على غير هدف كأنما تتلمس فى أثائها مسلاة تعينها على قتل الوقت ، ريثما يستيقظ رفيقها النشوم ، لتعاود معه الحياة .

وأولت وجهها سقف الحجرة ، فما وقعت عليه عينها ، حتى تشبثت به لا تقوى أن تزور عنه ، كأنه يشع تياراً كهربيّاً يجذب إليه البصر .

وكان من المألوف لديها ، أنها إذا علق نظرها بالسقف استبد بها سهوم يدينها من عالم الأحلام . وسنحت لها فكرة ، فكرة لطيفه شائقة ، فلم تطق أن تركها فى تلافيف رأسها الفضى ، فتنحنحت مرات تقطع على زوجها نومته ، فاضطربت أوصاله يتنبه ، وما هى إلا أن فتح عينيه ، وأطلق ثأؤبة كبيرة وهو يهمهم :

أنت يقظى . . . ماذا فى الأمر ؟

فقال له الزوجة تداعبه وتزجى ضحكة لينة عابثة :

هبطت على فكرة . . . أقسم لك إنها لا تخلو من طرافة..

إن سقتها إليك سررت بها لا ريب . . . ستتيح لنا فرصة لهُو
ومؤانسة . . . سأحدثك :

— تحدثينى ؟

— أمامنا متسع من الوقت ، ولم تحن بعد ساعة الخروج . . .

ففرك الزوج عينيه فى دهشة ، وحملق فى زوجته يتبين

تلك الفكرة التى طرأت على غير موعد ، فقطعت عليه فترة
الدعة والاستجمام . . .

وتهيات الزوجة للكلام ، وإذا هى تقول :

ماذا يا « سوسو » أما زلت نائماً . . . ألا ترعيني سمعك ؟

وهز الرجل كتفيه حانقاً ، وأقبل على نفسه يللم ما تبعثر

من شأنه ، فنحى الجريدة عنه ، وعمد إلى خصلة شعره النافر

يسويها ، ليستمرئ تلك الفكرة الطريفة التى هبطت من السماء

على زوجته ، لتنصب على رأسه شقوة ونقمة . . .

وسارعت الزوجة تكاشف رجلها بذات نفسها فى تحمس ،

وهى تستجمع على السرير ، وتعتمد ذقنها بإحدى ركبتيها ،

وعيناها يتلألاً فيهما دهاء :

هب أننا لم نكن متعارفين ، وهيات لنا المصادفة أن
نجتمع . . . فالتقينا . . . أين يا ترى ؟ . . .

ودارت « سنية » برأسها تفتش عن عش لائق ، وبعد لآي
خرجت من صمتها تقول :

وجدته . . . دار الخيالة . . . اكتشفتني أنت وأنا أبتاع
تذكرتي لمشاهدة العرض . . . كنت تلينى فى الصف عند
الشباك . . . فتنتك وسامتى وهمت بى أشد هيام . . . تعمدت
أن تظفر بالمقعد الملاصق لمقعدى . . . تحققت لك الأمنية
فجلست بجانبى . . . هذا هو الافتراض . . . ساذج بسيط
كما ترى . . .

وتعملل الزوج يزجى بكلمة ، لكنها تابعت تقول :
يحق لى أن أسألك إذن ماذا كنت فاعلاً . . . أتحاول
ملاطفتى والتودد إلى . . . ؟ أتقبل على " مطناً فى إطارى مشيداً
بطلاوتى . . . ؟ أتتحن الفرص للملامسة يدي تبتغى بها الوسيلة
إلى مجاذبة الحديث . . . فإن زجرتك تصنعت الأسف ،
وأطلقت لسانك بكلمات استعفاء . . . أكنت واجداً نفسك
مسوقاً تختلس إلى " النظر تشفى به قلبك الوهان ؟ . . . بماذا

تجيبى . . . ؟ تمنى . . . كل كلمة تنفوه بها لا ريب
محسوبة عليك . . .

واستمع « عزيز » إلى زوجته وهو يتميز من الغيظ ،
فأطلقت « سنية » ضحكة طائشة ، وغمغمت :
. . . عند الامتحان يكرم المرء أو يهان !
وشفعت قولها بابتسامة ساخرة .

وأطبق عليهما الصمت ، وانصرف الزوج يحك رأسه بأناملته
يفكر فى إجابة لا تأخذها عليه زوجه ، فتعكر بها صفو يومه
وأحد الرجل فطنته ، غير أنه ألنى نفسه صامتاً لا ينبس ،
فنهضت إليه زوجه فى غلائلها التى تشف عن جسدها البض
وعودها المشيق ، فأطال إليها النظر يتملاها وعيناه تفيضان
بالأحلام .

وأدركت الزوجة ذلك منه ، فرفعت صوتها تقول والبشر
يتوضح على محياها :

ستحاول سحماً مغالتي . . . ستسر إلى بكلمات المديح
والإطراء . . . ستتحين فرصة انكماش النور لتلمس يدي . . .
ستتصرف مثل أترابك ولداتك . . . واهاً منكم معشر الرجال .
وأمسكت هنية تجتذب أنفاسها . . .

حقاً إنه لرجل مثل سائر الرجال . . .

ماذا يعصمه . . . ؟

لن يكون إلا كذلك ينساق في مغازلة رخيصة ، لا يحجم ولا يحتشم .

واستبد بها هذا التفكير الحائر ، وانقلب زوجها هذا الرجل الكريم في عينيها عابثاً ماجناً غير مستقيم ، وشاعت على وجهها مسحة من كآبة واغتمام . . .

واستبان الزوج ما تعانيه « سنية » من هيجة وقلق ، فأقبل عليها يبغى كلاماً ، ولكنها صرخت :

دعني أتم لك حديثي لم تكن تفوتني خفية نفسك ومكبنون حيلتك . . . عهدتك ونحن في الطريق أو في محفل جامع تقلب النظر في الأوانس الكاعبات تكاد تبتلعهن بنظراتك العطشى ، ولسان حالك يقول : حرام أن يغفلوا رقبتى برباط الزواج مبكراً . . . وكم مرة يطالعني وجهك وقد شاعت فيه أمارات غم وتحسر . . .

وأراد الرجل أن يخرج من صمته ، وقد ضاق ذرعاً بذلك الافتراء الأثيم .

أليس من حقه أن ينفي ما يرمى به من نعوت ؟

لا . . . إنك لا تملك لنفسك حقاً !

واعتدل الرجل في جلسته يشعل لفافة تبغ ، وكان ينفخ
دخانها في ضيق ، على نحو مشير .

فألفت « سنية » نفسها منساقة تتطلع إلى الدخان المتطاير ،
وجمجمت في غيظ :

نعم . . . أنت تشعل لفافتك لتخفي ما أنت فيه من حيرة
وارتباك . . .

فأشاح الرجل بيده ، وهو يمحى شفته علامة النفي ،
فسمعها تههم :

إني على حق . . . كل الرجال خونة . . . خونة . . .
أسمع أنت ؟

وصدفت عنه « سنية » تلوذ بركن قصي وهي تبرطم ، وقد
استبد بها نشيج تقطعه تلك العبارة :

لا تحسبني أغار . . . فهذا آخر ما يخطر لي على بال !
وماذا عليه إن كان عابثاً ؟ . . . ألم يكن يومئذ مثل هذا
الهواء طليقاً لا إمرة لأحد عليه ولا سلطان . . . ؟

وأين هو من الخيانة . . . ؟ ألم تفترض في معرض الحديث
أنه أعزب ليس في حياته امرأة توجب عليه حقاً يرعاه . . . ؟

يا للنساء . . . !

عليه معالجة الأمر ، عليه أن يرضاها وأن يستغفرها من
ذنب لم يقترفه .

وهب الزوج يترك مقعده ، وسار إلى زوجته يشبع على
محياه اضطراب وأسف ، وحاول أن يحنو عليها ويحتويها في
صدره ، فأزاحته عنها في حركة ثم عن التأفف والاستنكار .
ولكنه هبط على أذنها في ملاينة وتلطف قائلا :

هبي أن ذلك وقع لك ولي ، ألسنت تسعدين بأن زوجك
أعجب بك قبل أن تصل بينكما عقدة الزواج ؟
فردت عليه في جفاء ، وما فتئت توليه ظهرها ، شامخة
الأنف :

وهل كنا زوجين . . . ؟

فقاطعها يقول محاولاً الإقناع :

لقد أصبحنا زوجين !

فأقبلت عليه توليه وجهها وما برحت شرقة بالدمع :

لم تكن تزوجتنى بعد !

— ماذا يهم ، وأنت نفسك في الحالين بيت القصيد ؟

الاشمت الزوجة ، فأردف يقول :

ألم يدلك كل ذلك على قوة إعجابي بك وحبي إياك ؟
 وجنحت « سنية » إلى المسألة ، فجذبها إليه ، فطاوعته ،
 وتمتم في صوت خافت وهو يحتويها بين ذراعيه :
 ما زلت هائماً بك يا « سنية » . . . ملكت قلبي ...
 أحبك . . .

فقال له في تخلع ودلال ، وهي تجتذب مندبله من جيب
 سترته ، تجفف ما تلاً على خديها من دموع :
 ماذا تقول ؟

أحبك . . . أحبك . . .
 وتهد الزوج تهدة مديدة ، فأقبلت الزوجة عليه ، عيناها
 متناومة ، وفهما يتودد ، فهوى عليها في قبلة محتدمة ، وعناق
 جياش ! . . .

صل من أجلى

انحنى على الطفلة بعوده المفتول ، واستقبل جبينها المرح
يودعه قبله طويلة وهى موشكة أن تنام .

ولامست أنفاسه وجهها ، فطوقت عنقه بساعديها ،
وهبطت على وجنتيه تلثمهما فى حرارة وإصرار ، مفضية بما تكن
لعمها من محبة وإعزاز ، فلم يسعه إلا أن يضمها إلى صدره
ضمة اشتياق ، واستغرقا على هذا النحو فى عناق جياش .

وما إن دار على عقبه ينأى عن السرير ، حتى استنكرت
منه الطفلة فى مهدها ذلك الفراق العجول .

وتشعثت حركاتها ، وكثر شغبها ، فغشى الفراش فوضى وكأن
ما تناثر من أغطيته ، وتبعثر من أرديته غوارب موج علت بها نائرة
الريح ، فانكب العم على السرير يصلح من أمره ويسوى حواشيه .
لم يغب عنه وهو يسجى الطفلة من جديد أن يدمث لها
الوسادة كى يستوى رأسها فى وضع مريح ، فتنام ساكنة البال
قريرة العين ، ثم بسط الغطاء يدرها به خشية أن يصيبها من برد
الليل أذى .

وسرعان ما عدل قامته ، وأدار ظهره ، ملتصقاً في خطاه
البهو الكبير .

بيد أن الطفلة لم تهدأ لها حركة وتمادت في غيها تصخب .
وفطن العم إلى ما تبغيه الطفلة : إنها لم تقصد من وراء عملها
هذا إلا المماطلة والتسويف ليمتد اللقاء فلا تشق إلى النوم من طريق .
وحين استدار العم على عقبه يواجه الطفلة ، تصنع
الغضب ، فأكسب ملامح وجهه سياء الجذ والحزم ، وكذلك
شحذ حنجرتة ، في سعة عالية أخرج صوته الهزيل ، جهورى
الجرس ، يوقع في روعها التخويف والترهيب ، وهو يصرفها عن
غيها المأوف كلما أوت إلى الفراش تهدأ وتستريح .

ولما نطق يؤنبها ، انكسرت حدة صوته ، وملك عقيقته
رنة عطف وخلجة حنان ، وما لبثت أساريه المربدة ، أن
انفجحت يكسوها إشراق .

أيس ذلك بغريب عليه : إن إرادته الصلبة حيال الطفلة
شمعة واهنة تحترق وتذوب .

ومثل للطفلة يبتسم .

بيد أنه ألفاها عاقدة الحيين ، زاوية ما بين حاجبيها ،
ترميه بنظرة يتجلى فيها أسف وعتاب ، فجلس على حافة السرير

يداعب وجنتها بقبلة خاطفة ، وقد احتوى يدها الصغيرة بين
كفيه ، وانبعث يخاطبها في وداعة يقول :

كفاك عناداً يا طفلى . . . مكثت معك أكثر مما
ينبغي . . . لا أود أن أكون سبباً فيما ينشب بينك وبين أمك من
لوم وتعنيف . . . دعى الليلة تنقضى في سلام . . . هيا . . .
عليك بالنوم . . . أعدك إن شاء الله أن يكون بيننا في غد اقاء.
وهم واقفاً يخلى نحافة السرير .

فتعلقت به الطفلة تغغم في صوت محزون :
لا تتركنى . . . ابق معى . . . أنا خائفة .
وراع العم ما سمع ، وطفق يمسح على رأسها بيده ، ويلعب
نخصلات شعرها الخصب ، متبسّطاً في الحديث يسألها :

وما سر خوفك يا طفلى ؟
وأطبقت الطفلة على يده وقد استبانة على محياها ظلال
امتقاع ، وهى تقول :

فى غد يكون الامتحان .
— أو هذا سر اضطرابك يا بنية ؟
وأومات الطفلة برأسها تؤكد قوله مسيلة الجفنين .
وافتر ثغره عن ابتسامة وهو يبادرها بقوله :



خيال ما تتوهمين . . . يوم الامتحان لا يخيف . . . ليس
 فيه ما يعكر الصفو . . . ستجدين فيه ما تألفينه في كل يوم :
 أنس من أترابك وحفاوة من مدرساتك ومدرسيك .
 يا للحجة الداحضة ، ويا للمنطق السقيم !
 زعم باطل ذلك الذى ساقه من قول .
 لا ريب أن الامتحان ظله ثقیل وموقفه بغیض .
 لطالما انتابه منه فزع مروع وهلع مستطير .
 أو ناس هو ؟

ألم يسجد الليل بطوله خاوى البطن ، محموم الأوصال ، وفي
 خياله منظر المدرس منتفخاً على مقعده وكأنه خرغام جسور
 يحدجه بالنظر الشرر ، وما أسئلته إلا أنيابه المسنونة تنهشه نهشاً ،
 فيقف منه ، واذلاه ، يابس الفم ، متخشب اللسان ، لا يحسن
 إلا الفأفة ، وهو يتخبط في أجوبة طائشة .

فلماذا يآلف نفسه الساعة مسوقاً إلى تضليل للطفلة وتغريب ؟
 وانتبه العم على صوت الطفلة تناديه ، فالتفت إليها يقول :
 هل من جديد ؟

فرققت الطفلة من صوتها وهى تعابث حاشية الغطاء :
 لى عندك رجاء .

— مطلبك على العين والرأس .

— صل الليلة من أجل . . . ادع الله أن يلهمنى الصواب
فما أكتب وأجيب . . . إني بك متفائلة وبدعائك مستبشرة .
— لك ما تبغين يا صغيرتى .

وانحنى على الطفلة يقبل جبينها قبلة خاطفة ، وراح فى
خطاه يتوخى باب الحجرة ، ولكن صوت الطفلة ناداه يستوقفه
قبل أن يدير مقبض الباب وينصرف ، وسمعها تقول :
سهوت عن أن ترقينى على مألوف عادتك قبل أن أنام .
وكر العم راجعاً إليها ، ومر بيده على رأسها هامساً برقيته .
واستشعرت الطفلة راحة تسرى فى أوصالها ، واستسلمت للنوم .
وزايل العم الحجرة يحاذر فى خطوه ، ومن ثم ترك المنزل
ليلتقى بالطريق ، فصافح وجهه نسيم رطب عطر .
وتحيرت قدماه : إلى أين تسعيان .

وتطلع إلى ساعته فالتى الليل قد توغل ولا أمل له أن يذهب
إلى مبتداه المفضل يستمرئ فى صحبة الرفاق وقت مؤانسة وصفاء .
ومكث غير قليل لا يعى ماذا يصنع .

ما باله يستشعر أن فى دنخيلة نفسه ما يشبه حجراً ثقيلاً
يعوق انطلاقه فى تلك الأمسية التى رق هواؤها ورطبت أنفاسها .

وتريث في وقفته يبسط أوصاله ويضمها مستعيداً نشاطه المألوف .
وبعد لأي ضرب يديه في جيبي سرباله وأطلق العنان لقدميه
لا يعرف لخطواته قصداً ولا وجهة .

وعرجت به خطاه في طوايا الطريق على ضفة النيل ، فظفر
به يسبح في بلحة من فضة ، نامياً على صفحته القمر مكتمل
التألق والبهاء ، فعقد ذراعيه على صدره وقد تاه في أجواز الخيال .
ما لتلك الطفلة تخوض في شأن صلاحه وتقواه تهرف في
الحديث بما تجهل ؟

من يكون هو في تقديرها لتطالبه بالدعاء ؟
المجرد عبادة وصلاة يصبح قدساً من طهارة وقبساً من نقاء ؟
الصلاة ما هي إلا مظهر ، تكليف واجب الأداء ،
لا يتكيف بها حكم على إنسان .
إن الطفلة لا تعرف من حقيقة أمره إلا مجرد طلاء ، شأنها
شأن المتطلع إلى قبر تحليه النقوش والرموز لا يدري ما تضمنه غيابه .
وما قلبه إلا غيابة ذلك الحدث .

كل ما تعرفه الطفلة أن عمها رجل سمح الوجه ، ندى
الكف ، أنيس الجليس ، ملء نفسه تقي وصلاح ...
ولكنها تجهل أن هذا العم لم يسلم من الإثم ، ولم يكن

بالطاهر العفيف ؛ لقد وقع في حباله هوى غير مشروع .
 ها هو ذا يعكف في صومعة ضلاله ، ومحراب غوايته ، يحرق
 عقله ويذيب إرادته بخوراً يعطر ذلك الهوى الذميم .
 لم يكن بأقل وثنية من هؤلاء الكهنة المتعبدین الذين
 يستهلكون الساعات الطوال يرددون الصلوات والتعاويد أمام دمی
 خرساء .

أثمة اختلاف بين الإحساس بالرغبة وإنفاذ المبتغى المراد ؟
 كلاهما في عقيدته إثم يصرخ الضمير منه ويلتاع .
 هذه المرأة التي شغفته حباً ذات زوج وولد ، وإنه إن
 التقى بها ، وما أكثر لقاءهما ، سعى إليها بلواحظه يلتهم منها
 قدميها الناصعتين المتوردتين ، ثم تسبح عيناه إلى الساق البديعة
 الملساء تموج في جوربها الهفهاف ناعمة بضعة ، ويعلو بأنظاره
 إلى شفتيها المكتنزتين كأنهما حبتان من كرز ناصجتان ،
 وما يزال في تطوافه بالمفاتن مسحور العين ، مشبوب الوجدان .
 أليست صلاته وسط هذه الزوبعة الآثمة ضرباً من الزيف
 والضلال ؟

أيحق للطفلة أن تطالبه بتوسل ودعاء ، وهو كنقد تتداوله
 الأيدي دون أن تفتن إلى زيفه ؟
 ما أكثر ما استمتع بحبه المحرم في أحلام يقظته ورؤى نومه .

فما إن يحتويه فراشه ويغمض عينيه حتى يحس له الوهم
صاحبه تشق الظلمة عليه وتبادره في غلالة كاشفة تتأوج على
نصرها اللدن في إيقاع متزن يساير خطوات الرزين وهي تدانيه
كأنها خطرات النسيم .

وهنا ينسدل الستار على وهمه الكاذب ، فيتنبه من أحلامه
ناقماً على نفسه ، منكراً ما يطوح به خياله فيه .

لا . . . إنه لن يصلى . . . هي كلمة قالها ولا مرد لها .
وصدف عن النهر مهزوم القوى ، ثرنج خطاه .
وبلغ شقيقته .

وما إن احتوته حتى صدمته الظلمة الجاثمة في أرجائها ،
وتعثرت قدماء بما اعترضه من أثاث ، فازداد ضيقاً على ضيقه ،
وانبعثت من حلقه كلمات التأفف والاستنكار ، وعجل إلى زر
الكهربا يطلق الإشراق من معقله فخرج النور يهزم جمحافل الليل .
وقصد ، على الفور ، حجرة نومه يستبدل بملابسه منامته
الراححة ، ويستكمل زينة المساء ، واكنه عزف عنها وما زال
مكتمل البزة قاصداً مكتبته يتودد إلى مجلداته وأسفاره ، فلم
يرقه عبوس الكتاب وهو قائم في صوانه خلف البلور الشفاف ،
ففزع إلى حجرة الجلوس ، وعرك مفاتيح المذياع ينطقه ،
بيد أنه ما أبطأ أن أسكنه ، ومضى إلى البهو الفسيح ، وهكذا

أخذ يحوم في الحجرات مثل النحلة الدؤوب ، تضيق به
رحبات شقته ، دون أن يركن لمقعد أو يخلد إلى ركن ، يصيب
عنده طمأنينة البال .

يا لله . . . الطفلة ما فتئت تطارده حيث حل ، وتطالبه
في ضراعة بالنجدة والغوث .

كيف تتمم شفثاه بدعوة ، وكيف به يجهر بصلاة .
أليس هو الآثم الأكبر : ما رعى خلقاً ولا فضيلة ،
وما كان ممن تحتنى بأدعيتهم أبواب السماء .
وامتدت يده إلى عنقه تفك عنها رباط الرقبة ، ثم عمد إلى زر
بنيقته يفتحه .

ونحطاً إلى النافذة يملأ رثتيه بالهواء بعد أن تخفف من
سترته ، وشمر عن ساعديه . . .

وشعر بشيء من الراحة .

بهذ أن حلقة يابس يطلب جرعة ماء .

وذهب إلى المستحم ، وقابلته المرأة ، فثل يتوسم وجهه وكأنه
ينظر إلى شيء بغیض يمججه ويكرهه .

أنضح وجهه بما طوى عليه صدره من غواية وضلال ،
فانطبع على المرأة يشوه إهابها المصقول ؟
كفاه تحديقاً إلى شبحه المستنوم .

فليعمد إلى الماء يبيل به ريقه ويمسح وجهه ليعيد إلى
شحوبه نضرة الحياة !

وانبسطت كفه إلى صنبور الماء تدير مقبضه ، فانثثق الماء
يفور في الخوض ويمور ، بيد أن كفه بقيت ساكنة لا تمتد إليه .
متى كان الماء يمحو ما اصطبغ به وجه إنسان من نجث
ولؤم وضلال ؟

أفي مقدور رذاذ أن يغسل المأثم ، ويظهر ضمائر العصاة ؟
يا لله ، لكأن تحرير الماء عبارات الطفلة تنهال عليه واضحة
النبرة ، جليلة الجرس ، تحثه أن يجهز نفسه بالوضوء ليشرع
في الصلاة والدعاء .

لا وضوء . . . ولا صلاة . . .

عليه أن يرد الماء عن مجراه ، وينصرف عن المستحم ،
مسارعاً إلى فراشه ينشد فيه الأمن والسلام .

واندفعت يده إلى صنبور الماء ترياء حبسه ، وما هي
إلا أن أحس بالماء يغمر فمه ، ووجهه وقدميه ، فما نشب أن رام
المستحم إلى حجرتة ووقف يتحرى القبلة ويستقبل وجه الله .

وخطرت له في صلاته توسلات الطفلة أن يدعو لها ، فإذا
هو ينخرط في دعاء وتضرع وابتهاال ، سائلاً لنفسه هو دون
سواه العفو والغفران .

الخاتمة

كان جالساً خلف مكتبه ، في الحجرة التي اختارها لنفسه
من ذلك المنزل الرشيق ، الذي استأجره على أرباض المدينة ،
حيث تنكمش الحركة ، ويسودها السكون ، فجعل منه مثابة
الإلهام ، ومنزل الوحي .

لم يألّفه صباح اليوم ، متفتح النفس ، على مألوف عاداته ،
بل هو جامد الملامح ، مربد الوجه ، يستغرق في تفكير ،
وقد انكب على أوراقه ، يشغل بها نفسه في تدقيق وتمحيص ،
ملتصماً لقصته الروعة والسمو .

ما لها تتعاصى على قلمه وتتأبى على فهمه ، منذ حين ؟
أيرجع إجداب فكره ، وجفاف قريحته ، لما أفرط فيه من
سهر في مغنى « الفن الرفيع » بصحبة « أمينة مكتبه » الحسناء ؟
إن عقله اليوم مشئت عليل ، لا يجود له إلا بتافه من
الحواطر ، وفج من الأفكار .

عليه أن يدبر نهاية لقصته ، ولا بد أن تكون مثيرة عامرة

بالحيوية والانتفاض ، وها هو ذا قد وقف قلمه حائراً ، يضمن
بما يطمع فيه من حبكة موفقة ، وختام مثير .

ودافت يده إلى لفافة تبغ ، أشعلها ثم اشتبك مع أوراقه
في عناد ، يعتصر ذهنه ، ويجمع شوارد خاطره . وكأنه يسوق
قلمه الشرود سوقاً إلى ما يرغب فيه ويريد .

وتمثل في مخيلته طيف « أمينة مكتبه » الحسناء وملك فكره
أمرها .

أتراها تستهويه لأنها تأنس به ، وتجذب عليه بما تحمل
بين جوانبها من قلب كبير ؟

أم لأنها تدنى منه منال الوحي ، وتعينه في ساعة الإلهام ؟
أفوق مستطاعه أن يزاول عمله بمفرده ، في صحراء خواطره ،
ومتاهة أفكاره ؟

وحانت منه التفاتة إلى ساعة احتلت من مكتبه ركناً قبعت
فيه ، وكأنها الراصد اليقظ ، يحصي عليه وقت العمل ومدة
الإجهاد .

فحدجها عاقد الجبين يتعرف !

وهز كتفيه ، يبرطم ، حين لاحظ أن النهار أوشك
أن ينتصف .

وانكب على أوراقه ، يعاود المطالعة والتفكير ، بيد أنه لم
يخط في عالم الرأى خطوة يتصيد بها ما ند من خواطره ،
وشرد من أحاسيسه

سحقاً لذلك اليوم المنحوس .

لا بد أن تكون « أمينة مكتبه » قد حضرت ، وأنها
— لا شك — فى انتظار غمزة الجرس ، لتقبل عليه كشأنها معه .
أيدعوها الآن ، ولم يخط قلمه منذ الصبيحة الباكرة جملة
صافية ، أو فكرة عالية ؟

وتطاول له رأس الجرس ، من بين كومات الأضابير ،
يختنق بها مكتبه ، يدعوه إلى غمزه ، فتطلع إليه ، ويده تقبل
عليه وترقد ، وقد اعتصر جبهته ، فاستبانت عليها ثنايا التجاعيد ،
تكشف عن تحير وإحجام .

وجذب من لفافته أنفاساً طويلاً ، ثم هز منكبيه ، ينصرف
بأنظاره عن رأس الجرس .

لا . . . ان يدعوها . . . ليعالجن مشكلته بنفسه ، دون
معونة أو إرشاد .

لن يناديها حتى تختمر فى رأسه الفكرة ويسلس له عنان
التعبير ، لكى لا يكون لها من مهمة ، إلا أن تتسمع من فمه

ما يتدفق به من قول ، فتدونه على الورق كالألة الصماء .
واستأنف يحمل عينيه على القراءة ويلقى بفكره فى أودية
الأخيلة والتصورات مستبطناً سر الموقف القصصى الذى التوى
عليه .

أما « أمينة المكتب » الحسنة ، فقد كانت فى حجرتها
المجاورة ، خالية إلى نفسها ، مستغرقة فى تفكير ، فمذ وفدت
على المنزل مع الصباح الباكر ، وهى تتحين لقاءه ، لعلها
تظفر بخبيثة نفسه ، وما ينحى عليه صدره من أنباء حالية ،
وأخبار تتلألأ بوميض آمال عراض .

لقد أنبأها — وهما مجتمعان فى مسهرهما المفضل ، ليلة
أمس — أنه ملئ الوفاض بما تسعد به وتسر ، فلما حثته على
الإبانة والإفصاح ، أمهلها إلى غد ، وهو يلاطف يدها ،
ويعايشها ، فى تبسط وظرف .

فلما خلت بنفسها ، فى مرقدتها ، نبا بها المضجع ،
وقضت ليلتها مسهدة ، لا يغمض لها جفن ، تتقاطر عايتها
مشاهد من حياتها ، منذ نجم بينهما عارف وتزامل ووصال .
أما كيف تم بينهما التلاقى ، فقد اتصلت عراه عقب
إعلان فى الصحف قرأته ، فتقدمت تعرض لخدماتها عليه .

لقد راعها منه وجه حسن ، وقامة معتدلة ، ودماثة خلق ،
حتى إن قلبها لم يتألك أن يخفق خفقاناً مضطرباً سرى في أوصالها ،
فكان كلا منها قلب على حدة يخفق ويرف .

كم كان حفيظاً بها حتى إنه تمادى في إكرام وفادتها ، فأفرد
لها مكاناً بجانبه ، وقدم إليها لفافة تبغ ، فاعتذرت عنها في
أدب ، فطلب لها قدحاً من شراب الليمون ، وما عثم أن لاطفها
في الحديث ، يرفع كلفة اللقاء الجديد ، واثني يسائلها نتفاً
من أخبارها .

وألفت نفسها منساقة ، تجيب في غير خجل ولا تهيب ،
تروى له قصة حياتها كاملة ، فوقف منها على أنها تعيش في
كنف أم مريضة ، تتطلب منها التعهد والرعاية ، وقد توفي
والدها ، مخلفاً لها رصيذاً ضئيلاً لا يسد نفقات العيش وأعباء
الحياة ، فالتحقت — لكي تجابه مسئولياتها — بأحد معاهد
الآلات الكاتبة تتدرب على أعمال الكتابة والاختزال ، وتلك هي
مقبلة عليه ، لتظفر منه بما يعينها على التكسب من رزق حلال .
وشيعها إلى الباب . وقبل أن يغلقه طاف بها في أرجاء
المنزل ، فاستوقفها أمام حجرة من حجراته وهو يدفع ببابها يقول :
هنا مكتبك . . . الآلة الكاتبة في انتظارك ، لكي تنجزى
بها ما تراكمن من عمل .

كادت تنفجر يومئذ ، من فرط حيوورها ، عندما رامت منزله ظافرة منه بكلمة الرضا عنها ، والترحيب بعملها .
وما إن استقبلت أمها المريضة ، حتى انهالت عليها في حماس ، تثني عليه وتمتدحه ، فلم تلق من والدتها إلا التحذير والتخويف والنصح .

أليس الرجال كلهم من طينة واحدة ، ومنبت مشترك ! !
نشأوا غلاظ القلوب ، وتدريبوا على أذية النساء ؟ !
ولكنها في زحمة نشوتها ، لم تعر تلك الثروة الواهية كبير اهتمام ، وأوت إلى فراشها ، ضجيجة حلم بهيج ، أذلك هو الحب الذى يصيب من أول نظرة ؟

أمستغرب عليها ، بعد هذه الليلة البهيجة ، أن تتحين لقاءه ، في هذا الصباح متوقعة أن يتضرج جبينها بحمرة الحجل ، ويسودها - كلما تطلع إليها - ارتباك ؟
ونأمت في الحجرة حركة ، فانتبهت تسمع ، عله يكون الحرس قد انبعث يدعوها إليه ، ولكنها لم تجد إلا صمتاً كأنما يتلصص عليها ، ويرصد منها خفايا الهواجس والأفكار .

وسمت إلى ساعة الحائط تتبين الوقت ، فإذا النهار وشيك الانتصاف ، وما هي ذى حبيسة حجرتها ، مشبوبة الوجدان ،

مقسمة الفكر ، تتحين صلصلة آلة صماء !

وداخلها قلق .

ماله يبطئ عليها ؟

ألم يفطن أنها أصبحت ظله الذى يأبى أن يفارقه ؟
أغائب عنه أنها صارت خلال تلك الشهور من تلاق
وتلازم ، يؤنسها منه فى تلك الحجرة سيل من مشاعر فياضة
رقاق ما تتمثل لها على الورق أناساً متقدمة الحس حتى تألف
معهم الحياة وتتوثق بينها وبينهم عرى مودة وإيناس .

أغائب عنه أنها قد صارت خلقه الذى صاغه وسواه فهى
وحى من صنع خياله وفكرة من فيض إلهامه ؟
إن تلك المثابة الفنية هى المخبار الذى أذاب فى أحماضه
شخصيتها الأولى ثم أطلقها منه إنساناً جديداً يعتمل فى قلبه حب
ويصطرع فى رأسه آمال .

الأجدر به أن يلقاها على الفور ، ويروى سمعها بما أخفاه
عنها من أخبار مشرقة .

وفى ما هى مستغرقة فى غمرة تلك الأفكار ، صلصل الجرس
طويلاً ، فما عثم وجهها أن اكتسى بالبهجة والإشراق ، وسارعت
إلى مرآتها تلقى عليها نظرة فاحصة .

لقد حانت الساعة الحاسمة ، وأن له أن يكشف النقاب
عن خبيثة نفسه .

سوف يطلق ، ساعة يلقاها ، ما في جعبته بنحوراً تفوح
أطيبه ذكية ، فتنشئ بشذاه العبق ، وتأنس به .
وغيب المرأة في حقيبة يدها ، بعد أن أصلحت ما تهوش
من شعرها وأمرت على شفيتها القلم المحمر ، تعيد إليهما وجاهة
الرونق .

وسرعان ما دفعت الباب الموصل إلى مكتبه ، في رفق ،
فأسفر عن وجهها البهي ، وقامتها المبسوطة ، ومنكبها العريضين ،
لفهما إليه مطرف من حرير ، يحليه وشي متآلف جميل ،
وقد انطوى ساعداها على رزمة من ورق ، وتناول بين إصبعين
من يدها قلم .

وتجلت عند الباب مشرقة الملامح ، متوهجة الجبين ،
بذلك اللقاء المرتجى .

وتشبث بالمقبض تنظر إليه ، ملتمة عيناها ، منبسطة
أساريرها ، وقد تراحت على شفيتها انتسامة متألقة ، كأنها
زهرة تختلج نشوى على عودها الرطب ، مشرقة الأكمام ،
يطالعها وجه الربيع الندى .

لكنه لم يرفع رأسه ، ولم يلتفت إليها . إنما ظل على حاله ،

يقلب الصفحات أمامه ، ويرقبها ، كأن لم يدخل عليه أحد ،
مغضن الجبين ، تتوضح على محياه علامات التزمّت والضيق . .
فلم تجد الفتاة بدءاً من أن تغلق الباب في عنف ، عكس ذلك
المتحجر على مكتبه يفىء إلى نفسه ، ويثنبه إليها ، واسترسلت
تحدّجه في غضب ، غير أنه تهادى في أنهماكه ، منصرفاً
عما عداه ، مما زادها من تغيظ وحنق .

وكادت كلمات الاستياء تفلت منها تسائله في تحدّ، عن
دواعي ذلك اللقاء الجاف ، لكنها ملكت نفسها ، وآثرت الصمت .
وما لبثت أن تخلت عن الباب ، تدلف في الحجرة في خطا
رعناء ، حملتها إلى المقعد عن كذب منه ، فهاكت عليه غير
معنية بما تهوش منها ، تلتهمها نار الخيرة ، وتمضها لوعة الوسواس
والظنون ، وكأن خبر الأمس المضيء ، ذبالة شمعة حاسرة
النور ، مطموسة الوهج ، في شعاع الشمس المصبّحة .

لم ينظر إليها ، ثم صاح محنقاً يقول :

لم أعد أحبك . . . أما فهمت بعد . . . ؟

واضطربت الفتاة ، وتسارعت دقات قلبها ، ثم تضرّج
وجهها بحمرة قانية ، وسادها ارتباك وسهوم .

وطأطأت رأسها ، تتشاغل بأثناء ثوبها ، تخفي ذهولها
من هول المفاجأة .

أما هو ، فصدر عن المكتب عاقداً يديه خلف ظهره ،
 واستقبل النافذة ، ينظر منها وينفث دخان لفافته جزافاً ،
 فيتلوى على زجاجها ويغشاه . . .

ويظل على هذا النحو مستغرقاً في تأمل وصمت .
 غريب منه ذلك الصنيع .

إنها لم تألفه فظاً غليظ القلب على هذا النحو ، حتى إن
 الابتسامة الوضيئة التي كان يلقاها بها لم يرف لها وميض ،
 ونظراته المعبرة لم تتوضح ، وكلمة الترحيب الطيبة ليس لها في
 الحجرة صدى ورنين .

أهذا هو النبأ المشرق الذي أزمع أن يفك عنه طلاسـم الأسرار
 ويبثها إياه ؟ !

ليته كتبه عنها ولم ياوح لها به .
 إنه انقلب أفعى تسعى بين يديها ، لا يحسن إلا اللدغ
 بما اختزنه من قوادل السموم !

ما ينبغي لها بعد الآن أن يعتمل في قلبها حب وتبرق في
 رأسها آمال .

وأفاقت الفتاة على صوته الراحل يقول :

لا تنكرى سنة الحياة . . . النار تخبو . . . والثوب يبل . . .
والحب لم يسلم من يد العفاء . . . قلبي لم يعد يتسع لك . . .
إني أكرهك . . . لم أعد أحبك وأهواك . . . وجب عليك أن
تقبل الأشياء على علاقتها بصدر رجب ، ونفس راضية .
وما كادت الكلمات تتوضح لسمعها ، وتبلور في عقلها ،
حتى ضاقت بها الحجرة ، وكأن جدرانها سواعد غليظة العضلات
أطبقت على عنقها تعتصره اعتصاراً ، وأن ما يحيط بها من فضاء
هو جب سحيق المهوى ، حاسر الضوء ، مختنق الهواء .
فامتقع وجهها ، وتسارعت أنفاسها ، وحدقت في الأوراق ،
على ركبتيها ، فتشلت لها غوارب موج ، تمور أعماقها بسوالف
الأحداث ، ومواضع الذكريات .
لم يسعها إلا أن تتذكر تلك الليلة التي قضياها على أرباض
المدينة الساجية ، في نزهة خلوية ، على ضوء القمر .
لم يفتح لها قلبه ، وينفض بين يديها جعبته كطفل التقي
بالصدر الحنون ، فاسترسل ينفث فيه رغباته وأمانيه ؟ !
لقد اندفع يشق غلائل الضباب ، الذي يكتنف المستقبل
المبهم ، صاروخاً منطلقاً إلى أعلى يرتاد مجاهل السماء ومطوى
الغيوب .

كان وهماً جميلاً ذلك الذى صورته ورعاه .
إنه هياً لها فيه مكاناً شغلته . . . بل كانت هى الشمس
التي تحف بها أفلاك وأقمار .

سوف تصبح رفيقة أسفاره ، وحليقة أفكاره ، ترصد له ،
وتدون ما يحتاج في نفسه من تجارب واستجابات للحياة والأحياء .
سوف يطيران إلى بلاد الفن الخالدة ، يستقبلان ربوع
أسبانيا المشرقة ، وإيطاليا الضاحكة ، وسويسرا المهندمة ،
وألمانيا المحجة ، وفرنسا اللاهية للعب .

سوف يتخطى بها ومعها أدبه حيزه الضيق لينطلق إنسانياً
متطوراً ، يكتب له في سماء الفن العالمى السمو والخلود .

لماذا حدثها ذلك الحديث المستفيض وهو قريب عهد بها ؟
لماذا كان يملأ قلبها بالأمانى الرطاب ، والأنخيلة العذاب ؟
أعزب عنه أن قلبها بالحياة حنى كالارض البكر ، سرعان
ما تتنضر وتنضر ، إذا أتيج لها زرع ورى ؟

وسمعتة يتهد تنهدة جياشة ، فاشترأت بجسدها كله إليه ،
وإذا به ما زال إلى النافذة رانياً ، يوايها منكبيه عاكفاً على صمته ،
غارقاً في تأملاته .

فما لبثت أن تهاوت بقوامها على المقعد متخاذلة ، وألقت

برأسها على مسنده ، وقد أمسكت بالقلم تقرض أطرافه في تغيظ .
 كم ودت أن تكاشفه ساعة أسدل على منكيها ذلك
 المطرف الموشى ، بما يعتمل في نفسها من مشاعر جياشة ،
 لكنها سكنت ، لا تملك إلا أن ترنو إليه ، وترنو مشبوبة
 العاطفة ، مضطربة الوجدان .

أما هو فلم يتفوه بكلمة ، غير أنه ضغط يدها ، وضغط
 حتى ألمها ، ولكنه ألم أشعرها بالحلب وغمرها بالسعد .
 كم كانت تواقه أن تهمس له من أعماق قلبها : ألم تدرك
 بعد أن بجانبك مخلوقاً يفهمك ويقدرك ويندوب عطفاً لك
 ومودة ؟

ما أروعه من يوم ، عندما خلط بين اسمها واسم النجم
 اللامع في روايته ، فأخذ يسكب في سمعها كلمات الهوى والغرام ،
 لا يحده في انطلاقه حاجز ، ولا يوقف تياره مانع . كتلك
 الأقمار الصاعدة من الأرض لا تملك إلا أن تدور مشدودة
 إليها بما للجاذبية من سلطان .

ليته لم يعتذر لها عندما تبين الخطأ .
 ليت تركها واهمة تحسب الخطأ حقيقة صادقة .
 لماذا لم يستقبلها بوجهه ساعة ضمها الحجرة إليه ؟

لماذا بقي نافرأ يوليها ظهره ؟
 أجبن أن يواجهها خوفاً من أن يلين قلبه ويرق ؟
 أعلى هذا النحو يختتم حلمها القصير معه ؟
 إنها لا تحتمل . . . أعصابها مرهقة إلى حد التخاذل
 والإعياء .

يا لها من غماثم قائمة تلك التي تغشى سماءها الصافية !
 ويخرج هو عن صمته ويقول راعش الصوت :
 علينا أن نفصل في هدوء . . . ليكون فصائلنا بمنأى عن
 زوابع النشيج والبكاء ، وشوائب التبكيت والعتاب . . . الحياة
 معك فقدت رونقها الجميل وطعمها الحلو . . . عليك
 بالرحيل . . . مبلغ من المال يعوضك ما لحق بك من
 ضرر . . . لم أعد أحبك . . . وإني على يقين من فطنتك
 وذكائك . . . لا تجعل المهمة عسيرة علي . . .
 واهتزت الفتاة كأنها استهدفتها لكمة عنيفة ، وغلى الدم
 في رأسها ، ثم ما لبثت أن انفجرت واقفة تصيح :
 كفى . . . كفى . . . لقد جاوزت الحد . . . إنك جامد
 كالصخر ، متغير كالهواء ، متقلب كالبحر . . . إنك قاس
 ونحش لا تعيش إلا من نفسك ولنفسك . منذ الآن لن أقف في

سبيلك . . . سأختفى من حياتك . . . سأكون خيالاً في
ضباب فنك ، وفكرة في سماء إلهامك إن بقي لك إلهام وفن . . .
الوداع . . . الوداع إلى الأبد . . . إني أمقتك . . . أمقتك . . .
أكرهك من أعماق قلبي .

وهزلت الفتاة خارجة يستبد بها نشيج ، ونخنقها عبرات ،
وقد قلقت المكتب بالقلم ، ودفعت بالورق فتناثر على أديم
الحجرة كأنه فتات قلبها الكسير .

واندفع هو يقول في حماس :

رائع ذلك . . . موقف مثير . . . دونيه . . . لا تسقطي
منه حرفاً . . . رائع . . . مرحى . . . مرحى . . . خاتمة فيها
ولا ريب الروعة والسمو .

واستدار على عقبه مهلل الأسارير ، فما كان أكبر دهشته
عندما التقى بمقعدها خالياً بنفسه ، وقد انسدل عليه مطرفها ،
وكأنه يمدجه في أسف وذهول .

وران على « رب الحجرة » سهوم ، ثم اندفع نحو الباب ،
وانطلق في مختلف الأرجاء مردداً اسمها في صوت جهورى
ملهوف !

فہرس

٥	الإهداء .
٦	أعترف إليك
١٣	ضابط الإيقاع
٣٠	إفلاس .
٤٣	نور وهاج .
٥٦	سيكس أبيل
٧٩	نداء .
٩٠	العقبة .
٩٥	ريحان القبور
١٠٤	خمسة قروش
١٠٩	ساعة راحة
١١٨	صل من أجل
١٢٩	الحاتمة .

رقم الإيداع	١٩٨١ / ٢١٥١
الترقيم الدولي	ISBN ٩٧٧-٧٣٤١-٨٤-٩

1/11/4

طبع بمطابع دار المعارف (ج. م. ع.)

